قبل أن يصمت القلم

رؤية ثقافية

خواطر حرة

عبد الرحمن الشرقاوى





المجلس الأعلى للثقافة

« قبل أن يصمت القلم »

رؤية ثقافية

خواطر حرة

عبد الرحمن الشرقاوي



١٩٩٧

هذا الكتاب يمثل مجموعة من المقالات التى أعدها عبد الرحمن الشرقاوى للنشر قبل رحيله بأيام قليلة وإن كان بعضها قد نشر فى الأهرام إلا أن أغلبها لم ينشر بالصورة النهائية التى أضافها كاتبها .

وقد طرق عبد الرحمن الشرقاوى كثيراً من الأبواب التى كانت موصدة قبله وأفسح مجالات هائلة لفن الأدب العربى الحديث للتعبير عنها .

اختار الكلمة أداة نضالية له واستطاع أن يصمد فى وجه أعتى الأعاصير ويتحدى قوى القهر والظلام والتخلف ليقدم للمكتبة العربية إيقاعات جديدة لم يسبقه أحد إليها وكان فكره وفنه يسيران فى إطار متناسق خلاب يتفق مع الحس العربى الأصيل وكان أدبه نبضاً حياً للثورة العارمة على كل ما يعرقل مسيرة التقدم والحضارة فى الواقع العربى المعاصر .

فهو يرى أن الكلمة لها قدسيتها المسئولة عن صياغة أفضل للوجدان الإنسانى وأن على الكاتب أن يضطلع بدوره القيادى فى تحرير أفكار شعبه . وأن على الشعوب المغلوبة على أمرها والتى يطحنها الفقر والاستغلال أن تثوب من حياة الظلام ومن غفوتها الشبيهة بالموت إلى النضال والثورة .

إن عبد الرحمن الشرقاوى يبرز دوره الرائد كمناضل خلاق وفنان عاشق مبدع وثائر يقاتل بالكلمة والموقف ويبذل الدم نفسه ليدعو شعبه أن يطرح عنه غبار الزمن لكى ينطلق ، كما تطرح البذور غبار الأرض وتخترق الظلمات لترفع أغصان الحياة نحو وهج الشمس .

فقد كان واحداً من هؤلاء الذين تشرأب إليهم الأعناق ، وتهفو إليهم القلوب وهو يسير حاملاً راية التجديد، معبّداً ومعلماً وداعياً ، ومفجراً طاقات الأمة ومستنفراً لطليعة أبنائها .

وفى هذا الكتاب الذى يمثل مجموعة مقالات خواطر حرة التى نشرها الكاتب فى جريدة الأهرام فى الفتره من ١٩٨٣ وحتى ١٩٨٧ ، سيعيش القارئ مع فكر رجل رسالته هى الدفاع عن الحق والخير والحرية والتغنى بأحلام البسطاء الشرفاء وروعة فجر جديد يسوده الإخاء والعدالة والمساواة والتحرر من قهر قوى الشر والظلام وسطوة صناع المآسى والأكاذيب .

كانت حياته مهرجاناً حافلاً للعشق والثورة ، اتسمت خلالها مواقفه بالفروسية والنبل .

وسيرى القارئ كيف كان كاتبنا حتى فى خصومته عظيماً عفاً مترفعاً ، يطل عليه بروعة أبطال الأساطير وجلال الظواهر الخارقة وليس عسيراً أن يلمح فى هذه الخواطر شاعراً فذاً عملاقاً . ورائداً متفرداً يذيب أفئدة القراء فى كلماته الساحرة ويأسرهم بعظيم فكره وروعة بيانه . أسموه فى جامعات العالم ، « ظاهرة الشرق المتأججة » وأطلقوا عليه فى « السربون » إذ تدرس أعماله « فيكتور هوجو » الأدب العربى لعطائه الرائد والمتميز فى شتى صنوف العمل الفنى من رواية وقصة قصيرة ، وقصيدة ، ومسرح شعرى ، ومقال أدبى ودراسات وتراجم . فهو الروائى الرائد الذى كانت روايته « الأرض » هى أول عمل روائى واقعى للريف المصرى . وقد بلغت قيمتها الفنية حداً جعلها تدرس فى جامعات العالم كنموذج نابض لنهضة الفكر وعظمة الأدب العربى المعاصر وهو الرائد لحركة التجديد فى الشعر على مستوى العالم العربى كله وفى هذا يقول الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى « عبد الرحمن الشرقاوى » هو رائد حركة التجديد الشعرية فى مصر بلا منازع ، بل هو من روادها الأوائل فى الوطن العربى كله . لقد سبق الشرقاوى صلاح عبد الصبور الذى سبقنى ، وسبق قبلنا نازك الملائكة ، وبدر شاكرا السياب ، فأوليات قصائده التى خرج فيها على اللغة الكلاسيكية والرومانتيكية وعلى العروض التقليدية تعود إلى منتصف الأربعينات ، قبل أن يخطر شئ من هذا على بال أحد ممن يدعون السبق الآن . »

وظل عبد الرحمن الشرقاوى يؤمن حتى أيامه الأخيرة بإمكانية تصفية الخلافات بين الأحزاب المختلفة ويدعو دائماً لموقف جبهوى موحد من كافة الأطراف الوطنية وهو ما نادى به فى سلسلة مقالاته عن الجبهة الوطنية .

وكان نداؤه الساحر الأصداء ، ودعوته التى حمل لواءها فى سنواته الأخيرة

هـى : « عودوا إلى الإسلام الحق تجدوه أكثر تقدماً من كل الفلسفات البشرية ولكم سهر الليالى عاكفا متبتلاً فى محراب الفكر الإسلامى يزيح عنه الغبار ، ويحرره من الخرافات والتفاسير المتهافتة ، ليؤكد أن رسالة الإسلام كانت فى جوهرها ثورة إجتماعية وإنسانية ، تنطلق من كلمة لا إله إلا الله ، لتسقط كل صنوف الاستعباد والعبودية إلا لله وحده سبحانه ليس كمثله شئ ولتحرر المستضعفين وتحطم دساتير القهر الاجتماعى وقوانين التسلط الروحى على رؤوس صناعها . ولكم واجه من عقبات وتحديات وخاض معارك ضارية شرسة ومشى على الشوك فى دروب محفوفة بالأعاصير مزروعة بالألغام ولكنه لم يأبه بهذا كله وظل كالطود الشامخ يناضل فى إصرار وضراوة ملتزماً بقضايا وطنه ومشاكل عصره وحقوق الإنسان فى غد أفضل قائلاً فى حنان فياض « إن ما يجمعنا كثير وما يفرقنا أقل القليل فلنتجه إلى ما يجمعنا ولنلتزم به ليكون هو الفاعل فى حياتنا ، وليعذر بعضنا البعض فيما نختلف فيه فهو قليل .. قليل » .

وهكذا لم تعرف الثقافة العربية أديباً عبر عن عصره بكل هذا الصدق أو جسد آمال أمته بكل هذا الشوق أو سطعت من خلال كلماته تقاليد بلاده وأمجادها مثل عبد الرحمن الشرقاوى فاستطاع أن يفرض أسلوبا فذاً فى صياغة الأدب العربى ، وتمكن من أن يرصع المسرح الشعرى بروائع المسرحيات التى تضمن له الخلود والاستمرار . وهو فى ذلك حريص أشد الحرص على التمسك ببيئته الثقافية العربية بكل مالها من معطيات خصبة وثراء وجدانى إنه ينتسب إلى عالم رائع من الأدب الرفيع تتعانق حروفه لتصنع فى النهاية ملامح الإنسان العربى بكل آماله وطموحاته وعذاباته وجراحاته من أجل غدٍ أفضل وهذه المقالات هى إشراقات روح يعمرها الحب .. روح جسور تقتحم الآفاق وتخوض غمرات المجهول وتستقطر تجارب العمر لتصبها قطرة بعد قطرة فى الأعماق وكأنها أكسير الحياة أو عصارة الخلود ينبض فى شرايين الوطن والوجود كله بدم جديد وطاقات جديدة .

إن هذه المقالات التى تؤلف كتاب « قبل أن يصمت القلم » كتبها عبد الرحمن الشرقاوى بعد أن جاوز الستين ورغم ذلك ستجدها تشع بحرارة فنية وتنتفض بحيوية الشباب وتجلها الحكمة التى استخلصت العبرة من المعاناة والمعايشة والتأمل فجاءت فى النهاية من آيات البيان العربى الناصع المختلج بجلال الفكر العميق المتأمل.

لقد كانت خطوات عبد الرحمن الشرقاوى فى حياته انعكاساً لكلماته ، كما كانت كلماته تعبيراً عن خطواته . فهو يحتشد بكل طاقاته ويندفع مهما يكن الخطر ليدفع باطلاً وليحق حقاً . فهو كاتب مقاتل . شجاع ويملك مع ذلك القدرة على أن يضفى الشاعريه على الأشياء الصغيرة فى حياتنا اليومية .

يغوص فى قاع المجتمع ليستخرج الكنوز الإنسانية كما يغوص فى أعماق التراث ليستخرج نفائسه وقد تجلى فى أدبه هذا التفاعل الرائع بين الثقافة العربية الإسلامية والأدب الغربى وظل المسرح دائما هو حبه الكبير يعود إليه رغم ما يلقاه فى سبيله من مشقة . وليس بين قصاصى العالم أو روائييه من يدانى الشرقاوى فى قدرته على تصوير الجوانب البطولية فى حياة الإنسان بكل ألوانها العديدة وظلالها الخفية إنها بطولة الحزن النبيل فى قدرته على إهداء البسمات رغم طوفان المدامع .

ومع ذلك فهى بطولة ذات طابع قومى واضح بما فيها من رقة وصرامة وسعة تمثل جوهر النفس المصرية لدى الفلاح البسيط .

لقد تناول الشرقاوى من خلال أعماله العديدة نضال الإنسان الشريف البسيط وحقه العادل من أجل حياة تسودها الحرية والكرامة . وناضل بصلابة منقطعة النظير كافة أشكال القهر مدافعاً عن حقوق الإنسان وكرامته .

لتبقى أعماله الخالدة تعبيراً حياً عن ضميره وفكره نابضة بكل المبادئ الغالية التى عاش واستشهد من أجلها .

وفى النهاية أدعو الله عز وجل أن ينفع القراء بهذا الكتاب وأحتسب فى سبيله ما كابده مؤلفه من مشقة وجهد استكمالا لرسالة جليلة وهبها حياته جميعا .

د / أحمد عبد الرحمن الشرقاوى

عن اللغة العربية

ما من لغة يملك أهلها أسباب الزهو بها والحرص عليها كاللغة العربية .. ذلك أنها هى اللغة التى اختارها الله تعالى لينزل بها آخر الكتب السماوية ، هدى للناس ورحمة ، وبينات من الهدى والفرقان ..

هى لغة القرآن الكريم الذى تحدى الله ببلاغته فصحاء الإنس والجن ، أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ..

هى لغة التنوير والإعجاز ..

وهى اللغة التى صاغ بها السلف العظيم حضارة أخرجت الناس من الظلمات إلى النور ، وأضافت إلى العقل البشرى ثراء متجددا ..

وهى اللغة التى كان الأذكياء من غير أهلها يتحملونها لكى يكونوا مثقفين حقا ..

وهذا حظ من رفعة الشأن لم يتهيأ للغة أخرى ..

ولكن أبناء اللغة العربية على الرغم من ذلك كله يهملونها ، ويخطئون فيها ، كما لا يخطئ أبناء اللغات الأخرى فى لغاتهم القومية ..

هذا هو حالنا اليوم إلا قليلا من أبناء اللغة العربية .. فهؤلاء تحروا رشدا.. هذا هو حالنا اليوم .. فما بال القرون الأولى ؟!

فى صدر الإسلام سئل خليفة عربى عن سر الشيب الذى يجلل رأسه وهو بعد شاب ، فقال الخليفة العربى « شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن .»

إلى هذا الحد كان السلف يتحرجون ويستحيون .! ثم جاءت من بعدهم أمة يرتقون المنابر ، ويوغلون في اللحن ، ولا تهتز منهم شعرة ..! ولقد زاد الفؤاد جوى خطأ الذين نتوقع منهم الصواب ..!

وهذه ظاهرة تغشى كل بلادنا العربية بلا استثناء .. حتى لقد أوشك الخطأ في اللغة أن يصبح كعموم البلوى الذى لا يمكن التحرز منه ، فيقبله الناس كارهين !..

والخطأ في اللغة قد يقود إلى خطأ في السلوك ، وقد يؤدى إلى بلاء كبير .. من ذلك ما يروى عن رجل من أهل البلاد المفتوحة ، كان قد أسلم وحسن إسلامه وتعلم اللغة العربية ولكنه كان كثير اللحن فيما يقرأ ويكتب .. وقرأ مرة بيت الشعر المشهور :

ولست أبالى حين أقتل مؤمنا   على أى جنب كان فى الله مصرعى .

فقرأ كلمة قتل بضم الهمزة وفتح التاء ، بل بفتح الآلف وضم التاء ..

فخرج شاهرا شيفه ، وقتل أول مؤمن قابله .!

حقا .. من الأخطاء اللغوية ، ما فيه مصارع الرجال .

وهذا يحدث على نحو أشد خطرا فى أيامنا هذه ..!!

ولكن الله عندما خلق الإنسان علمه البيان .

جعل اللغة وسيلة للإفصاح والإيضاح والفهم والإدارك جميعا .. من أجل ذلك فلنحرص على أن تكون اللغة فصيحة مفصحة ، تبين عن خلجات النفس ، وخطرات العقل ، وأشواق القلب .. وعلى أن تكون أول الأمر وآخر الأمر لغة صحيحة ..

لقد استطاعت اللغة العربية أن تحتفظ برونقها وبهائها حتى في عصور الانحطاط السياسى .. وكانت الجوامع قلاعا تحمى اللغة .. وكان للأزهر دوره العظيم فى صيانة اللغة العربية من الاضمحلال أو الاندثار .. كان الذكر الحكيم على ألسنة القراء والمتعبدين صباح مساء .. وكان طلاب المعرفة من كل البلاد الإسلامية يشدون الرحال إلي الأزهر يتفقهون فى الدين واللغة ويعودون إلى بلادهم بما حفظوه وما فقهوا فيه ، منارات معرفة تضئ ما حولهم ..

وفى حفظ القرآن الكريم وفي تعود تلاوته تدريب للقلب ، وتصويب للنطق بلسان عربى مبين . من أجل ذلك كان أفصح خطابئنا فى العصر الحديث هم الذين حفظوا القرآن الكريم . وتعودوا قراءته مسلمين كانوا أم مسيحيين ولعل أبرز هؤلاء زعيم ثورة سنة ١٩١٩ سعد زغلول ، ومكرم عبيد ..

ومنذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن العشرين . عرفت مصر وسائر البلاد العربية بعثا جديدا فأما المعبرون بالكلمة فقد جهدوا فى إحياء نضارة اللغة العربية ، وعمد الآخرون إلى التعبير عن الشعب بالتشكيلات الفنية والموسيقية .. وانفتحوا فى الوقت نفسه على معطيات العصر والحضارة خارج الحدود .. ومن خلال التفاعل بين أنبل ما فى التراث وأحدث ما فى العصر ، صنعوا الثقافة الجديدة التى هذبت العقول والقلوب ، وأغنت النفوس والأفكار ، وصنعت للناس ذوقا رفيعا .. كان التلميذ الصغير لا يدخل المدرسة الابتدائية حتى يحفظ جزءا صالحا من القرآن الكريم يهذب نفسه ويقوم لسانه .. وفى المدرسة الابتدائية يتلقى مع المعارف الأخرى قواعد اللغة العربية ويتقنها ، ويتدرب على الخط العربى ، ويتلقى مختارات من أجود النظم والنثر : قديمه وحديثه .. ويستمر فى تلقى هذه المختارات حتى ينتهى من الدراسة الثانوية فإذا هو قد حفظ ووعى أجود ما فى التراث العربى وما فى الأدب الحديث ..

وكانت ساحات المحاكم أسواقا للبلاغة يتبارى فيها المحامون .. وكانت منابر المساجد مراكز إشعاع دينى وثقافى .. وعندما أنشئت الإذاعة كان المذيعون مثلا للنطق الحسن وسلامة التعبير .. وكانت أحكام القضاء نماذج من الأدب الرفيع .

وكانت مدرسة دار العلوم العليا والأزهر الشريف يخرجان أجيالا من معلمى اللغة العربية هم صفوة الرجال أحسنوا تنشئة الطلاب وكانت الخطب العامة التى يلقيها المصلحون والمفكرون والسياسيون قطعا رائعة من الأدب .. أما اليوم .. فماذا يتلقى التلاميذ والطلاب فى مدارسنا مما يقوم اللسان ويكون الذوق الأدبى .. القليل من الأدب الحق ثم كثرة غامرة مما يؤلفه كبار موظفى وزارة التربية ..!! وبدلا من روائع امرئ القيس والأعشى وعنتره وأبى تمام والمتنبى والشريف الرضى والبحترى والجاحظ والأصفهانى وابن المقفع وابن قدامة ، والبارودى وشوقى وحافظ والمنفلوطى وغيرهم من أئمة أصبح على الطالب أن يحفظ ما يقرر عليه من إبداع كبار موظفى الوزارة ..

وأصدقائهم .. عندما كانت الوزارة أسمها وزارة المعارف ، كانت تقدم أسمى ألوان المعرفة .. أما اليوم فواحر قلباه ..!!

وكانت كتب تاريخ الأدب مؤلفه بموضوعية كاملة .. أما اليوم فقد تسربت إليها روح المجاملة والشللية فما يلقن فيها للتلاميذ ليس إلا وجهة نظر ذاتية ، يعلى فيها المؤلفون من يرضون عنه ، ويظلمون من لا يروقهم ، يلقن هذا كله للتلاميذ والطلاب ، ويفرض عليهم أن يستوعبوه ليؤدوا فيه الامتحانات فأى ذوق أدبى نربيه لهم .

أى معرفة نلقيها فى أفهامهم .

إنهما لمعرفة مغرضة منحازة هى شر من الجهل نفسه ..!

ثم ها نحن أولاء نرى خطباء المحافل يهجرون اللغة العربية الفصحى إلى اللغة العامية .. ونرى المتحدثين والمذيعين يتعثرون فى النطق ويلحنون بلا تحرج حتى فى إذاعات القرآن الكريم .. إلا قليلا ممن يأخذون الأمور مأخذ الجد .

قواهم الله وهم فى خضم الخطائين الذين لا يستحى بعضهم من الزهو بأنه لا يعرف « النحوى » بفتح الحاء ..!! أين ذهب الحياء ؟!

ما علاج الأمر إذن ؟! كيف نصون اللغة العربية . وكيف نلقى فى قلوب الناشئة من أبنائها حب هذه اللغة الجميلة . كيف نكون ملكة التذوق الأدبى والثقافى وهى التى تصوغ الذوق العام وتشكل أسلوبا متحضرا للتعامل بين الناس فى شئون الحياة اليومية ؟!

فلنعد فى دراسة اللغة العربية إلى المناهج التى كونت فى مطالع هذا القرن حتى أربعيناته صفوة المثقفين والمفكرين .

فلنعد إلى تهيئة التلاميذ من خلال الكتاتيب التى تحفظ القرآن الكريم .. والأزهر الشريف قادر على انشاء آلاف الكتاتيب . وإن تعذر عليه إعداد الأماكن الصالحة ، فلتكن المساجد فيما بين الصلوات الخمس معاهد للعلم ، كما كانت دائما فى العصور الزاهرة الزاهية .

فلنقرر على تلاميذ المدارس قدرا صالحا من القرآن الكريم يحفظونه ، ويتفهمون معانيه ، وليقم بإقرائهم رجال متخصصون عالمون بأصول القراءة القرآنية ..

فلنعد إلى تقرر مختارات من التراث العربي ومن أجود الأعمال المعاصرة نثرا وشعرا .. فلتبحث وزارة التربية عن أمهات الكتب العربية التى كانت مقررة على الطلاب فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات لتعيد تقريرها . .

ولتبحث عن كتابى المجمل والمفصل فى تاريخ الأدب وهما من تأليف نخبة من العلماء والمفكرين على رأسهم طه حسين والشيخ السكندرى وأحمد ضيف وأحمد أمين ..

فلتكلف لجانا جديدة من كبار المفكرين والكتاب والأساتذة بتأليف كتب موضوعية بعيدا عن الهوى عن أدبنا الحديث .. لتقوم باختيار نماذج من الأدب تعنى الطلاب ، وتحبب إليهم الأدب العربى نثره وشعره ، وأدبنا الحديث زاخر بفنون الأدب من قصص ومسرحيات وشعر وتراجم ومقالات .

عسى الله أن يوفق وزير التربية والتعليم الدكتور مصطفى كمال حلمى وهو العالم الأريب واسع الثقافة إلى حل هذه المشاكل جميعا .

فلنعد فى إعداد المعلم إلى دار العلوم القديمة بكل تقليدها التى اندثرت الان ..!

فيكلف المذيعون والمتحدثون أنفسهم مشقة العناية بالنطق السليم وباحترام قواعد اللغة وليكن فى كل مكان يتعامل باللغة العربية مصححون يضبطون الكلمات للمذيعين والممثلين .

أما الذين ننتظر منهم الصواب وهم يخطئون كما يحدث من بعض خطباء المساجد والمتحدثين فى إذاعات القرآن الكريم فى كل البلاد العربية .. فليتقوا الله !

وتبقى بعد ذلك توصيات هامة للارتفاع بشأن اللغة العربية وحمايتها وهى التوصيات التى انتهت إليها دراسات شعبة الثقافة بالمجلس القومى للثقافة والإعلام .. وهى الشعبة التى يتولى مسئوليتها أحد كبار مفكرينا ومثقفينا وهو الأستاذ سليمان حزين الجامعى العتيد وزير الثقافة الأسبق . .

غير أن توصيات المجلس القومى للثقافة والإعلام لا تنشر على الناس كما لا تنشر سائر توصيات المجالس القومية المتخصصة .. والإعلام بهن جميعا ضعيف

ضعيف والعتاب موجه إلى الدكتور محمد عبد القادر حاتم المشرف العام على المجالس القومية المتخصصة أن فى دراسات وتوصيات المجالس القومية المتخصصة حلولا لكل ما نعانى منه لكل مشاكل الخدمات والإنتاج .. لمشاكل الثقافة والإعلام والاقتصاد والصناعة والزراعة والإسكان وغير ذلك .. ولكنها جميعا محجوبة عن الشعب ، وهو صاحب الحق الأول فى تبينها وتفهمها وأعمال الرقابة على تنفيذها .. ألا يستطيع الدكتور محمد عبد القادر حاتم المشرف على المجالس القومية المتخصصة أن ينشر هذه الدراسات والتوصيات على نطاق واسع .. اليقين أنه يستطيع .. وهذا هو واجبه الأول .. فما جدوى كل هذا العناء الذى يبذله المفكرون والعلماء والمتخصصون فى المجالس القومية المتخصصة . إن ظلت ثمرات الفكر وتوصيات المجالس تحت يد المسئولين التنفيذين ، لا هم ينفذونها ولا هى تصل إلى الشعب صاحب الحق فى استيعابها ، وصاحب السلطة فى الرقابة على تنفيذها ..

أيمكن أن تبادر المجالس القومية بنشر توصياتها على أوسع نطاق والعمل على توعية الأمة بها ، لتتحقق الفائدة منها ؟! أيمكن هذا ؟؟! أم أنه غير ممكن لأمر ما لا نحب أن يكون الوضع كما قال المثل العربى القديم :

لأمر ما باعت المرأة سمسما مقشورا بغير سمسم مقشور !!

١٩٨٢/٣/١٠

الثقافة والسياسة

من الناس من يحسب أنى أكتب فى الثقافة هربا من الكتابة فى السياسة ! ولقد سألنى صديق من المشتغلين بالسياسة لماذا تهجر السياسة ..؟؟.. وقال العاتبون هذا شئ عجيب ..! فماذا أقول ؟ .. إن هم إلا يظنون .. وبعض الظن إثم ..! .. فما من شئ يدعو أحدا إلى الهرب من الكتابة فى السياسة ، ونحن فى عصر يفتح الصدر لكل الآراء .. والكتاب والصحفيون يقولون ما يريدون .. وبعضهم يقول مالا ينبغى ، أو أكثر مما ينبغى ، ومنهم من يمسك بتلابيب كل شئ ..

ومنهم من يثير بقلمه الغبار على وضاءة الأشياء الناصعة . ومنهم من يحدث من الضوضاء ، وينفث من الغازات السامة أكثر مما ترهقنا به طرقات القاهرة ..!!

كل الكلام يقال .. المطابع تطالعنا فى كل صباح ومساء بألوان من النقد ، ونقد النقد ، والهجوم والهجوم المضاد !

وما من أحد يمنع أحدا ، وما من حق أحد أن يصادر حق الآخر فى التعبير مهما تكن حدة التعبير !! وحتى أشرطة الكاسيت دخلت أسواق التعبير ..!!

ففيم يعزف مثلى عن الكتابة فى السياسة وما من محاذير ؟! وما عزفنا عنها حين كانت كلها محاذير ، وحين كانت طرقاتها تمتلئ بالصخور ، والأشواك ، والشراك !!

إن الذين يتوهمون أن الكتابة عن الثقافة هروب من السياسة يخطئون فى فهم السياسة ودورها ، وهم مع خطئهم هذا ما قدروا الثقافة حق قدرها ..!

فإذا كانت السياسة هى فن بناء المجتمع ، فإن الثقافة هى فن صياغة عقل هذا المجتمع وقيمه ، وهى فن تكوين المواطن الذى يبنى المجتمع الأمثل .

الثقافة وحدها هي التى تشكل القيم التى يجب أن تضبط سلوك الأمة ، وترسى قواعد التعامل فيما بين الأفراد ، وتبصر الإنسان بما له من حق وما عليه من واجب ، وتكون الذوق العام وحسن الآداب .

الثقافة وحدها هى التى تضئ العقل ، ليحرك الطاقة البناءة فى الإنسان .

هى التى تملأ القلب بدفء المودة ، وتغمر النفس بحب العمل ، وتجعل من الوجدان قوة واعية مبدعة .. وهي التى تجعل للإنسان سلطانا على الطبيعة ، إذ يفهم قوانينها ، وحركة التاريخ فتمكن قبضته على المصير ليتمكن من صناعة حاضر أجمل ، ومستقبل أروع .

المجتمع الجاهل لا ينشئ حضارة ولا يحقق تقدما ، بل يتساقط فى مهاوى الجهل حتى يندثر .!

والذى لا يملك نورا فى القلب يعجز عن إضاءة شمعة ..!. وشمعة واحدة تتحدى بنورها كل ظلمات الليل ، فما تقوى الظلمات على أن تطمس شعاعا مهما يكن ضئيلا ..!

وما أقامت مصر أول وأعظم حضارة فى التاريخ القديم ، إلا لأن المصريين القدماء كانوا مثقفين ومتقدمين في كل ألوان المعرفة : أتقنوا الرياضة والهندسة والطب ، والفلك ، والرسم وسائر ألوان العلوم والفنون ..

وهكذا ازدهرت الحضارة الإسلامية والعربية ، حين استطاع الأوئل من السلف الصالح - بهدى من القرآن الكريم - أن يقتحموا آفاق المعارف ويستوعبوها ، وأن يتقنوا العلوم والفنون والآداب .. فقهروا المجهول ، وأمسكوا بأيديهم أزمة المصير بإذن الله ..

استطاع الفكر الإسلامى الفتى أن يكشف قوانين الطبيعة والحياة ، وأن ينشئ العالم الفاضل على دعائم من تعاليم الإسلام ، وفى ظل ظليل من قيم الدين القيم ..

ومن تلك الثقافة الإسلامية والعربية ، تفجرت على قسوة الحياة ينابيع التراحم والحب والبر والإحسان ..

ومن جلال التعاليم الإسلامية خرجت مبادئ الفتوة ، والنجدة ، والفروسية ، والإحترام المتبادل .. حتى لقد شكلت مبادئ الإسلام فى أوروبا العصور الوسطى أنبل ما في تقاليد الفروسية الأوروبية من أحترام للمرأة .، ومساعدة للضعيف ، وإكبار للشيوخ ، ومساعد للفقراء ....،

على هذه التعاليم الإسلامية قامت مجتمعات فاضلة حقا ، يلتزم كل أفرادها مكارم الأخلاق ، وتسودها القيم الشريفة . فإذا كل الأفراد رحماء بينهم .. كلهم يعمل ، وكلهم يساعد اخاه ، وكلهم يضيف إلى الأمة عطاء وثراء .. فإذا بالتقوى هى التى تحكم علاقات الناس .. وإذ بكل أفراد المجتمع نماذج رائعة من الذوق المصفى وإذ هم جميعا يتمتعون بزينة الحياة الدنيا والطيبات من الرزق التى أحلها الله لعباده يأكلون أشهى الطعام ، ويلبسون أنظف الثياب .. ولكل منهم بيت يسكن فيه إلى دفء الحب وسكينة الأمن ولكل منهم دابة تحمله إلى حيث يريد ، حيث طرقات الحياة جميلة لا يفسدها ضجيج ولا زحام ، ولا تخنق الأنفاس فيها غازات سامة بل تعبق بعطر البساتين والحدائق ، وتستلقى عليها ظلال الأشجار ، وتضوع فيها الأنسام يهدهدها شدو الطير !!

الطير ، والزهر ، والأنغام والسكينة وجلال المودات .. والمتاع الحلال .. هذه هى الروعة التى كانت تنبض بها المجتمعات الإسلامية ، حين كانت تتألف من أفراد مثقفين ..

وهكذا خلت أمم من قبلنا أقامت بنيانها على الثقافة فازدهرت وأترفت ، حتى لقد كان بعض حكام المسلمين لا يجدون مصارف للزكاة ، فليس فى الأمة فقراء أو مساكين أو أبناء سبيل يستحقون أموال الزكاة !! فكان من أمراء المؤمنين من ينفق هذه الأموال على التعليم حتى لم يعد فى الأمة من لم ينل حظه الوافر من التعليم من ذكر أو أنثى ، فأنفقوا هذه الأموال على تزويج الشباب ، ومنحهم رواتب ومساكن صالحة وما فرق أمراء المؤمنين فى ذلك بين المسلمين من الشباب وغير المسلمين !!

أكان يمكن أن تزدهر هذه المجتمعات ، بغير الثقافة ؟!

الثقافة هى التى صاغت عقول الأفراد وارتفعت بأذواقهم ، وهذبت أخلاقهم فوعوا ما عليهم وما لهم ..

وهكذا استطاعوا أن يحققوا التقدم والرفاهية ..

أين الذوق العام فى عصرنا من الذوق العام فى تلك العصور الباهرة الذاهبة ؟

فلننظر إلى فقدان الإحساس بالنظافة على الرغم من أن ديننا يأمرنا بالنظافة ولقد ورثنا من الماضى صوتا عظيما يعلمنا أن النظافة من الإيمان .

فلنتأمل أي طريق فى أية مدينة عربية أو أسلامية أهذا هو ما يأمرنا به ديننا ؟!

حتى بيوت الله التى كان يضوع فيها من قبل عرف المسك وشذى البخور أصبحت الآن تضج من الروائح الكريهة على الرغم من الأمر الإلهى الحاسم الذى ورد فى القرآن الكريم :

« **خذوا زينتكم عند كل مسجد** » أيمكن لأفراد شكلت الثقافة عقولهم وأذواقهم أن يسمحوا أن تزحف القذارة على شوارعهم ولا ترحم مكانا حتى بيوت الله !! ..

ثم لماذا لا تحقق خطط التنمية أهدافها فى بلادنا الإسلامية والعربية وسائر البلاد النامية ..؟! .. ولماذا لا يحدث هذا فى الخطط الاقتصادية فى البلاد المتقدمة ؟! .. أنحن أقل ذكاء ؟! .. حتى الأعداء لم يزعموا هذا ..!! أنحن أكثر رفضا لما تأتى به الحكومات ؟! كلا .. بل ربما كنا أكثر أمتثالا للقوانين والقرارات .. أو نحن بالقليل مثلهم ..!

ولكننا مع الأسف أقل حظا من الثقافة والتعليم وهنا تكمن العلة ، وهي علة تولد الشقاء الناطح بقرنيه ..! أن تلك المجتمعات المتقدمة التى تنجح فيها الخطط الاجتماعية والاقتصادية قد تطهرت من الأمية ثم إن الثقافة زاد وغذاء يومى لكل مواطن فيها فهو يقرأ روائع الأدب ويطلع على منجزات العلم ويتفهمها ويمتع حسه وعقله ويربى ذوقه بالفنون المختلفة من تشكيلية وتعبيرية لهذا يحرص على نظافة بدنه وبلده ، وبيته لهذا يوفر السكينة لغيره ولا يسمم الجو من حوله بالضوضاء والغازات السامة التي تنفثها أدوات النقل والقوانين الصارمة من بعد تضبيط قواعد السلوك لهذا الذوق ويتراحم الناس ويفسح القوى للضعيف ولا يتركون شيخا أو عجوزا يتزاحم .. فى وسائل المواصلات ولهذا ينتظمون فى صفوف ولا يحاول أحد أن يدفع الآخر أو يستولى على مكانه !! كل هذه الأشياء الصغيرة التى هى علامة التحضر والتى تنبع من حسن الذوق كلها تتوافر حين تشيع الثقافة .

ولكن المجتمعات التى يقل نصيب الفرد فيها من الثقافة تفقد هذا جميعا ..؟!
ثم .. كيف نبنى المجتمع الفاضل أو الأمثل الذى تخطط له السياسة إذا كان الأفراد الذين سيبنون هذا المجتمع لا يملكون قدرا من الوعى يؤهلهم للنهوض بواجبهم فى صياغة عالم جدير بأن يحيا فيه الإنسان ؟!!

لماذا لم تعد كل النداءات والمواعظ قادرة على أن تقنع الناس بأن موارد الدولة ستعجز عن مواجهة احتياجات الأفراد إن ظلت الزيادة فى عدد السكان تطرد على النحو المخيف الذى نشهده ..؟

لو أن أفراد هذه الأمة كانوا يتمتعون بالقدر الواجب واللازم من الثقافة لما عجزت النداءات والمواعظ عن الإقناع ولما احتاج الأمر أصلا إلى موعظة أو نداء ذلك أن العقل المثقف يخطط لصاحبه ولا يزج به فى المآزق.. مأزق إنجاب أكثر ممن يستطيع أن يعول .. ثم إن العقل المثقف يمتاز بالنظرة الشاملة فهو يحسب حساب المستقبل ، ويدرك قوانين الحياة ويدرك أن كل زيادة فى السكان لا تحتملها الموارد إنما تعنى قصورا فى الخدمات والطعام نفسه وتعنى الاندفاع إلى هاوية بلا قرار ..!

ويرسل إلى قارئ فاضل خطابا يلومنى فيه إلى الدعوة إلى تحديد النسل وينكر على أن أرجع هذه الزيادة إلى الجهل أو نقص الثقافة وفقدان الثقافة الدينية ثم ينكر أن الإمام الغزالى أفتى بأن تحديد النسل غير منهى عنه .. لو أن غير هذا القارئ الفاضل قال هذا .

أما إن زيادة السكان على نحو لا تحتمله موارد الدولة وطاقتها ترجع إلى شيوع الأمية وإلى التخلف الثقافى فهذا ثابت بالاستقراء العلمى فلننظر فى دول العالم المتقدم والعالم النامى .. فى العالم المتقدم حيث تضئ الثقافة عقول الناس وحيث لا أمية بعد ، لا تنجب الأسرة على الرغم من الغنى أكثر من طفلين .. أما فى العالم النامى حيث تشيع الأمية والتخلف والقصور الثقافى فالأسرة تنجب عشرة أطفال أو يزيدون ..

وحيث يتناسق عدد السكان مع الموارد والدخل يتحقق الرخاء والتقدم .. والنسبة تطرد .. وهذه حقائق علمية موضوعية لا حيلة ولا مجال لاجتهاد .. أما أن ينكر أحد

قول الإمام الغزالي فأنا أحيله إلى الجزء الثاني من كتاب إحياء علوم الدين صفحة (٥٣) .. ولعل السيد القارئ قد خلط بين الإجهاض وبين الامتناع عن الحمل .. فالاجهاض منهى عنه إلا لضرورة كإنقاذ حياة الأم .. والمحظور تبيحه الضرورة فالجنين نفس والإجهاض قتل النفس .!

وأنا ما تحدثت عن الإجهاض ولكنى كنت أتحدث عن الامتناع عن الحمل وهو غير منهى عنه فى حالات ذكرها الإمام الغزالى مثل : استبقاء جمال المرأة وسمتها ، أى المحافظة على جمالها وقوامها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفا من خطر الطلق ..!! هذه حالة ذكرها الإمام الغزالى حتى حرص المرأة على جمالها فى رأى الغزالي وحسن قوامها يبيح الامتناع عن الحمل ..! أما الحالة الثانية فهى : « الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة على التعب فى الكسب ودخول مداخل السوء » .. وهذا كلام واضح لا يحتاج إلى تفسير .. ولو أن السيد القارئ كلف نفسه مشقة الرجوع إلى كتاب إحياء علوم الدين لكفى نفسه الكثير !! والقارئ الفاضل كما يبدو من خطابه من علماء الدين فهو يعرف كل المعرفة ما هو كتاب إحياء علوم الدين ومن هو الإمام الغزالى وما مدى التزامه القرآن الكريم والسنة وآثار الصحابة وكيف أطلقوا عليه حجة الإسلام ..!

ومن المعروف أن الفقهاء قد أجمعوا على أن للزوجين أن يتفقا على عدم الإنجاب أو تحديد عدد الأولاد لهذه الأسباب المذكورة . وسندهم أن نفرا من الصحابة استأذنوا الرسول فى هذا فأذن لهم عليه الصلاة والسلام .

إن شغف المعرفة ونقص الثقافة فى بلادنا العربية والعجز عن حسن استعمال أسمى ادوات التعبير عن الثقافة وأنا أعنى اللغة العربية .. كل أولئك مجلبة للحتوف !!..

وما حيلتنا بعد أن كان الخطأ فى اللغة العربية واأسفاه قد أصبح يمس نصوص التشريعات والقوانين .. فقد حدثنى أستاذ فاضل من أساتذة القانون أنه مضطر إلى تدريس نصوص قانون تفسده الأخطاء اللغوية وتغير معانيه هذه الأخطاء وبالضرورة تجر القضاة الذين يطبقون القوانين إلى الخطأ .. لأن القضاة يلتزمون بتنفيذ نصوص

القانون كما أوردها المشرع !!

إن النص القانونى يجب أن يكون صحيح اللغة تأتى فيه الألفاظ على قدر المعانى فصيحا مبينا ، فلا يدع مجالا لسوء التأويل ، أو الخطأ فى التطبيق ..

ورحم الله زمانا كانت فيه النصوص القانونية والأحكام القضائية وكتابات الأساتذة والشراح والفقهاء والمجتهدين ومرافعات المحامين صورا جميلة من فصاحة البيان العربى ..!

وعندما يصل بنا القصور الثقافى إلى إهدار اللغة العربية بحيث يغير الخطأ معانى العبارات فالأمر إذن يحتاج إلى استنفار لتنقذ اللغة من العابثين بها والعادين عليها أيا ما تكن مواقعهم .. وهم لسوء الحظ من الذين يخاطبون الجماهير من المنابر أو من أجهزة الإذاعة والتليفزيون وغيرها من أدوات النشر أو من الذين بأيديهم مقاليدالأمور .. كان الإمام الشافعى رضى الله عنه يشترط فيمن يلى أمرا من الأمور أو فيمن يخاطب الناس أن يتقن اللغة العربية وأن يحفظ الأشعار القديمة إلي جانب حفظ القرآن والحديث وآثار السلف وكان يحذر من الخطأ في اللغة لكيلا تفسد الحياة .. وخلال مرضه عاده أحد الزوار فقال له : قوى الله ضعفك ، فابتسم الإمام الشافعى فى أسى وإشفاق على ما أصاب اللغة العربية وقال لزائره « تريد أن تدعوا لى بالشفاء ولكنك تقول قوى الله ضعفك وهذا دعاء على لالى .. أفلا قلت قوى الله عافيتك أو أذهب الله ضعفك أو أضعف الله ضعفك » .

وبعد .. فإنه بغريب حقا أن نضطر إلى تبرير الأهتمام بالثقافة !! إن الثقافة ليست أثمن حلى العقل فحسب ولكنها قوام الإنسان ودعامة التحضر وقوته الدافعة وهى عصب التقدم .. ونعود إلى تأكيد أن الثقافة هى فن صياغة الفرد الذى يبنى المجتمع ..

وكل بناء سياسى أو أقتصادى على غير أساس وطيد من الثقافة إنما هو بناء هش على الرمال !

وإلا فلنتأمل ما يدمره فقدان الثقافة الدينية من حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية !

أكان من الممكن أن تظهر دعوة للعنف بأسم الإسلام لو أن الثقافة الإسلاميه كانت هى ما يعمر نفوس الشباب ويضئ عقولهم ؟!..

أكان من السهل أن تتبدل الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة إلي حوار بالرصاص والخناجر واتهام بالكفر واستباحة للأموال والدماء لو أن الثقافة الإسلامية هى ما يصوغ المشاعر والوجدان ويشكل الأفهام ..؟ وهذا هو ما تعانى منه كثير من بلادنا العربية والإسلامية . وإذن فكفى حديثا عن الفصل بين الثقافة والسياسة والاقتصاد !كفى !!.. فلنحشد جميعا مستنفرين كل طاقاتنا لإنقاذ الثقافة واللغة العربية من المحنة .. فبغير هذا تصبح محاولة الإصلاح كالغرس فى أرض ميتة .. وأنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟!.. هو وحده الذى يستطيع بإحدى معجزاته أن **يحييها وهو على كل شئ قدير** .

ولكنه تعالى يخلق الأسباب وقد أمر الله الناس أن يعملوا ولهم قلوب يفقهون بها .. أم على قلوب أقفالها .؟!

١٩٨٢/٣/١٧

كفى ..!

لا أدعي الحكمة ولكنني أنشدها وأدعو إليها ونحن في حاجة إلى كل ما ورثته الإنسانية من حكمه لكى ننقذ بلادنا مما يغشاها ويفترسها هذه الأيام .

نحن في حاجة إلى ما يشبه المعجزة ، لكى ننظف وجه مصر ووجه العروبة مما يهال عليهما من تراب ؟!

إن بلادنا التى تعانى من التخلف الفكرى والعلمى والتكنولوجى ، وتعانى من احتلال أجزاء عديدة من أراضيها ، وتعانى من تهديد سواحلها الخليجية بفناء الأحياء والتلوث القاتل ، وتعانى من ضغط الظروف الاقتصادية على مقدراتها . بلادنا التى تعانى من هذا كله ومما هو أخطر منه . لا يشغلها هذا الخطر الناطح بقرنيه ، ولا الاستعداد لمواجهة مشاكلها ، بقدر ما يشغلها أن يشهر بعض حملة الأقلام فيها بحرمات الأحياء والموتى على السواء ..

فبدلاً من أن يهتم الفكر العربى ببناء المستقبل ، وبإنقاذ حياة الملايين من أخطار المجاعات والعطش والجفاف ، وكل ما يهددهم .. وبدلاً من أن يرسم الفكر العربى طريقاً للخلاص من الاحتلال الإسرائيلى بكل ما يمثله من عار ومهانة واستنزاف .. وبدلاً من أن يجمع الفكر العربى شمل القادة العرب على كلمة سواء .. وبدلاً من أن يحاول إنقاذ الإنسان من الفوضى ، ويجد حلاً لقضايا الطعام والإسكان والأمية والمرض والفقر الروحي والإملاق الثقافى والحضارى .. بدلاً من هذا كله ، ينشغل بعض المنتسبين إلى هذا الفكر العربى من المعبرين بالكلمة ، بأمور لا تهم شعوبنا بل تستفز

هذه الشعوب ، وتفقد القراء ثقتهم فى الكلمة المكتوبة ..

وإنى لأعجب لهذه الشراسة التى تدفع الكاتب لأن يمسك بتلابيب الآخر ، ويمزق منه الثياب واللحم ، لأنه يختلف معه فى الرأى أو فى النظر لبعض الأمور !!

متى كان هذا هو أسلوب الحوار فيما بين الكتاب فى أى مكان من الأرض ؟!

حين لاذ توفيق الحكيم فى وحدته بالله تعالى وشرع يناجيه ، وخيل لتوفيق الحكيم أنه يسمع صوتاً يطمئنه ، ثارت عليه الدنيا .. وارهبوا الحكيم الصالح ..

كان رد فضيلة الشيخ الدكتور محمد الطيب النجار ، هادئا مقنعاً جميلاً فيه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .. وكان استقبال توفيق الحكيم كاتبنا الكبير لهذه الموعظة الحسنة ، استقبالاً كريماً .. وكان هذا الحوار مثالاً لما يجب أن يكون عليه أدب الحوار ، بلا اتهام ولا إرهاب ، ولا تهديد .. وأنتج هذا الحوار أثره ، فكتب توفيق الحكيم مناجاة أخرى لله تعالى يعتذر إليه عما فرط منه ، وأوحى بفهم ما لم يقصده ، ويؤكد فى استغفاره إيمانه بالله تعالى ، ويكرر إيمانه بأن الله تعالى لا يخاطب إلا رسله بطرائق بينها سبحانه ..

وكان الأمر حرياً بأن ينتهى عند هذا الحد ، ولكن ظهرت بعض الصحف تنسب إلى الشيخ محمد متولى الشعراوى ، غضباً عارماً على الحكيم ، وتقولت هذه الصحف على الشيخ الأقاويل .. وكلها يخالف ما اتصف به من حكمة ، كاتهام الآخرين بإشاعة الضلال ، ودعوتهم إلى المبارزة ، حتى اضطر الشيخ إلى تكذيب ما نسب إليه ..

ثم يختلف كاتبان على رأى أو عدة آراء أو تختلف مواقفهما فإذا بأحدهما يتهم الآخر بأنه ثور هائج ، وبقرة سمينة غير حلوب !!

كيف وصل أسلوب الحوار إلى هذا المستوى ، وكيف يمكن أن ننقذه ..!

لقد سألنى عالم مصرى كبير : ما هذا الذى تنشره صحافتنا .. وما علاقة شعوبنا بهذه الشتائم والمهاترات ، ولماذا يصبح هم أحد كبار السياسيين هو التشهير بأحد كبار الصحفيين ؟! ألا يمكن إنقاذ صحافتنا من هذا البلاء .. ألا يمكن جذب

الأقلام للاهتمام بمشاكلنا ؟! .. ألا يمكن حشد الطاقات للمساعدة فى عجزنا المؤلم عن مواجهة المشاكل وحلها .. ! أين مصر ومصلحة مصر وحماية مستقبلها ومصير شعوبنا العربية فى كثير مما تسطره بعض الأقلام المصرية والعربية .

ثم تدهمنا غاشية ما كنت أحسب أنها ستجثم على الصدور بكل ثقلها .. هي ما تنشره بعض الصحف العربية من كتابات هيكل ويوسف إدريس ..

ولكم هو محزن حقاً أن يفتح الإنسان عينه ذات صباح فيجد صديقاً نحمل له الود والتقدير ، ونعلق على كتاباته الآمال ، يتورط فى خطأ مستفز ، فإذا به يسلب الآخرين أثمن حلى النفس ، حيث لا يكسب من هذا شيئا .. بغته .. فى الأيام التى تحتفل فيها مصر بالجلاء عن سيناء تتوالى القذائف على ذكرى السادات ، وكأنه اغتيال جديد ..!

اغتالوا حياته فى ٦ أكتوبر عيد انتصاره الحربى ، وفى ٢٥ أبريل عيد انتصاره السلمى يحاولون اغتيال سمعته ! .. لماذا ..

ما الذى تستفيد الصحافة العربية التي تنشر كل هذا الهجوم على ذكرى السادات .. أيساعد هذا على تحرير بقية الأرض المحتلة فى لبنان والجولان والضفة الغربية ؟! .. أيرفع هذا مكانة العرب عند العالم المتحضر ؟! أيوحد الصف العربى الممزق ؟! ..أيحل مشكلة فلسطين ويضمن للشعب الفلسطينى إنشاء دولته المستقلة على ترابه الوطنى تحت قيادة منظمة التحرير ؟!

لا .. ولكنه تشويه لما يجب أن نعتز به ، فنصغر كلنا فى عيون الآخرين .. ويبدو بعض كتابنا بلا وفاء ، يحركهم الانتقام وتضطرب فى أيديهم الموازين ، فبدلا من أن يصدورا الأحكام الموضوعية ، يسوقون المطاعن الشخصية ..وهذا يفقد الثقة فى أحكامهم . إن ما كتبه محمد حسنين هيكل ويوسف إدريس ، ليس تحليلاً ، وإنما هو التشهير بعينه ، هو الاعتداء على حرمة رئيس مات ، وعلى سمعة وطن بأسره .. ولكم هو معذب حقاً لمن يحتفظ لهما بالود والتقدير ، أن يجد الكلمة تتحول عندهما من أداة رفيعة للتعبير إلى وسيلة للتشهير .

وهذا كله باطل

وإذا ببعض الردود على ما كتبه هيكل لا تناقشه بقدر ما تحاول أن تشهر به ، وتستبيح دمه وسمعته .

لو كان السادات بحق هو كما وصفه هيكل لتحمل عبد الناصر مسئولية اختياره نائباً له ، ولتحمل هيكل مسئولية أكبر فقد كان هيكل أحد الذين أيدوا أنور السادات فى أول ولايته ، وهو أحد مهندسى ١٥ مايو . ولقد ظل يؤيده طوال السنوات الأربع الأولى من حكمه .. فكيف اختاره عبد الناصر نائباً له دون سائر أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وكيف أيد هيكل هذا الاختيار ، وتحمس لترشيح السادات رئيسا بعد عبد الناصر ، وغامر بحياته ليؤيد السادات يوم ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ؟!

متى اكتشف هيكل كل هذه المثالب فى أنور السادات ؟ إنه لمحزن حقاً أن يكتب هيكل ما كتبه عن السادات ، فهو فيما كتبه أحد الرجلين : إما أنه أيده وهو يعرف مثالبه ، فقد خدع الشعب ، وإما أنه يختلق هذه المثالب بعد أن اختلفا فهو يخدع نفسه والشعب جميعاً ..

وكلا الأمرين شر لا أحبه ولا أرضاه لهيكل .. فعسى أن يراجع هيكل نفسه ، ويكتب تاريخ السادات ، بلا غضب ، وبلا ضغينة ، كما وعد قراءة فى أول كتابه « خريف الغضب » .

فالذى كتبه عن السادات ليس إلا نفثات صدر ينزف من الجراحات ..ففى الكلمات طعم المرارة ، وطعم الدم أيضا .. والحقيقة ضائعة ، وهو يستفز الضمير الحى .. أن نجد قلماً ينهش بكل هذه القسوة سيرة رجل أصبح فى ذمة الله .. من الحق أن هذه السيرة ملك للتاريخ ، ولكن من قال أن كاتب التاريخ من حقه أن يهدر الحرمات ، ويشهر بسمعة الرجال والنساء بلا دليل ! .. من قال أن كتابة التاريخ تعنى العدوان على سمعة الذين هم فى ذمة التاريخ .. ومتى كانت كتابة التاريخ ، تمزيقاً للأشلاء .. إن ما كتبه هيكل لم يسئ إلى السادات فى شئ فقد أنبرت الأقلام الغاضبة هنا وهناك تدافع عنه .. وحتى خصوم السادات أحنقهم ما كتبه هيكل .. إن هيكل أراد أن يكتب تاريخ السادات فشهر بالسادات وعبد الناصر على السواء . وما ظنك برئيس دولة يختار نائباً له وهو يعلم عنه كل ما ذكره هيكل من عيوب ثم يقول هيكل دفاعاً

عن هذا الاختيار أن عبد الناصر اختار السادات وفي ذهنه أن يعزله بعد عودته من رحلته .. أليس هذا عبثاً يجب أن ينزه هيكل عنه رجلاً مثل جمال عبد الناصر ..؟!

مرة أخرى لكم أتمنى على الله أن يقتنع هيكل بخطئه ، وأن يدرك أنه بكتابه ذاك قد أساء إلى نفسه بأكثر مما كان يمكن أن يسئ إليه كل خصومه ، واستنفر عليه الذين يؤيدون السادات والذين يخالفونه على السواء ..

وهو يستطيع في هدوء أن يعاود النظر في كتابه ، وأن يعتذر إلي الله والناس عما تعمد قلبه من إساءة .. أما الأخطاء الأخرى التي تمس جوهر التحليل التاريخي فأنا أدعو المؤرخين والمفكرين عندنا إلى مناقشتها .. من هذه الأخطاء رأى هيكل في الثوابت والمتغيرات التي ألمت بمصر فمن رأيه أن من هذه المتغيرات الدين واللغة ، فمصر قد غيرت دينها ولغتها ثلاث مرات عبر تاريخها .. هذا موضوع نرجو أن تفرد الأبحاث لمناقشته ..

على أننا إذا فهمنا سر غضب هيكل الذي ورطه في التشهير بسمعة أنور السادات .

إذا فهمنا سبباً للضغينة التي وعد هيكل قراءة أن يتحرر منها فيما يكتب ، فانغمس فيها .. إذا فهمنا هذا كله ، فما بال يوسف إدريس .. ما هذا الذي يكتبه عن السادات ، وعن حرب أكتوبر بلا دليل أكانت حرب أكتوبر بكل بطولاتها وأمجادها وتضحياتها تمثيلية كما يقول يوسف إدريس أعرض عن هذا .

كفى .. ولنعمل جميعاً على أن نعيد للكلمة جلالها ، وأن نستعيد ثقة القراء فيها .. لكي تصبح نبضاً يعبر عن خفقات القلوب ، ونوراً يضئ بما تشعه العقول ، وحصناً لحرية الإنسان وشرفه وللدفاع عن مستقبله ..

كفى .. فلتفضوا الاشتباك !!

ولتشغل الكلمة بما يفيد الشعب ..

كفى ما كتب رداً على هيكل ، فيجب أن نشغل القراء بشئ أجدى ، وهيكل مطالب بأن يصحح ما أخطأ فيه ، وليس هذا عيباً .. فليتخلص مما يحمله للسادات ومن غضبه وآلامه ..

وليكتب من جديد تاريخاً حقيقياً للرجل .. أو فليكتب عن السادات من هم أقدر من هيكل على الكتابة الموضوعية عن أنور السادات . بلا غضب وبلا ضغينة ، وحتى بلا حب .. فقد أصبح السادات فى ذمة الله آمناً من الغضب والحب والسم والخنجر والرصاص وكيد الأصدقاء .. فيجب أن يتناوله التاريخ بما ينبغى من الحيدة والموضوعية ..

ولينظر يوسف إدريس فيما كتب .. إلى من يسئ .. ومن ذا الذى يستفيد مما يكتب كفى ..! كفى إهالة للتراب على ما هو مضئ فى حياتنا .. كفى تشويهاً لأنفسنا .. كفى قذفاً لبعضنا البعض !

كفى .. ولتنشغل صحافتنا العربية بما هو أنفع لشعوبنا .

عسى الله أن يوفق المجلس الأعلى للصحافة إلى وضع تقاليد للحوار والنقد ، إلى حماية شرف الكلمة ، وحريتها وسمعة الموتى والأحياء وهيبة المعبرين بالكلمة ..

١٩٨٣/٤/٢٧

نداء..!

لم يعد الوقت صالحاً لاستمرار هذا التمزق الذى تصنعه الخلافات .

ولا أحد يستطيع أن يفهم لماذا يتحول الخلاف فى الرأى أحياناً ، إلى مغاضبة وقطيعة كل من يختلف مع الآخر يحاول أن يزرى به ، وأن ينتقص منه ، وأن يجرده من فضائله ، ويهيل التراب على جلال تاريخه وشرف مواقفه !!. وهذا كله استهلاك للطاقة بلا جدوى .. ليست السياسة مباراة رياضية .. هذا حق .. ولكنها أيضاً ليست ميدان قتال ، ولا هى بالحرب القذرة ..!

يجب أن يكون هناك خلاف ، ولكن يجب أن يحتفظ المختلفون بالقدرة على تبادل الاحترام ، وصيانة الود .

لقد ورثنا من السلف الصالح صوتاً عظيماً يعلمنا أن كل واحد من المتناظرين يتمنى على الله أن يظهر له الحقيقة ولو على لسان من يناظره !! فما بالنا نهدر تلك التقاليد المجيدة ، وتتحول المناظرة عندنا إلى مصارعة بالأيدى ، وتراكل بالأقدام .. وأحيانا إلى تقاذف بالأوحال !

ما من أحد يستفيد من كل هذا . لا الوطن ، ولا المتحاورن أنفسهم .. فهم يخرجون من كل خلاف فى الرأى ، منهكين ، تلطخت أثوابهم البيضاء وضيعوا وقتهم ووقت الناس !!

إنه ما من أحد يحتكر الصواب .. ما من رجل أو حزب يملك وحده الحكمة وفصل الخطاب . ولأمر ما جرت سنة الحياة على أن ننسق الحكمة من معطيات قرائح عديدة .

لعل الله قد أراد هذا لتكون الشورى بحق هى أساس الحكم .. وتكون حرية التعبير هى السبيل إلى الرأى الصائب .. ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وهكذا يؤتى الله الحكمة من جعل الحرية والشورى سبيله إلى الرأى الصواب ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً .

ونحن فى مصر نواجه مشاكل النهار والليل .. وما من مشكلة أقل خطراً من الأخرى .. وما من مشكلة يمكن أن تنتظر ..! فكل مشكلة لها آثارها الاجتماعية والحضارية والصحية والنفسية !

ولكننا نسلك فى علاج المشاكل طريقاً لن يوصلنا إلى الحلول الحاسمة بالسرعة اللازمة .. إن تراكم المشاكل وضخامة حجمها يجب ألا يخيفنا ، بل وعلينا أن نبدأ بالبحث عن الحلول من فورنا !

إنه ما من علاج معد ، ولكن يجب أن تتعاون كل القوى لتجد العلاج السليم يجب ألا تنتظر الحكومة حتى يتقدم لها أحد بحل .

ويجب ألا يتصور الحزب الحاكم أنه وحده هو القادر على الحل .. فمصر غنية بالكفاءات والعقول المبدعة .. هناك من المشاكل ما قد يبدو مستعصياً ، كمشكلة الإسكان مثلاً ، بكل تأثيرها المدمر على شبابنا الذين يريدون أن يتزوجوا ، ويكونوا أسرهم ، ويمارسوا الحياة الآمنة السعيدة التى يجب أن يوفرها لهم الوطن .

غير أن مشكلة الإسكان بكل تعقيداتها لها أكثر من حل فى اجتهاد مهندسين كبار ليسوا من حزب الحكومة ، ولكنهم من أحزاب المعارضة أو غير منتمين إلى أحزاب المعارضة أو غير منتمين إلي أحزاب على الإطلاق .. فهل اطلع أحد على هذه الحلول ؟! وأنا أذكر على سبيل المثال الكتاب القيم الذى ألفه الأستاذ الدكتور ميلاد حنا منذ سنوات ، ووضع فيه حلولاً كاملة ونهائية لمشكلة الإسكان .. هل قرأ أحد الرسميين من المسئولين عن الإسكان كتاب ميلاد حنا ، أو ناقش الرجل ؟! أليس الحزب الحاكم هو المسئول الأول عن كل مشاكلنا بما أنه يحكم فلماذا لا يبادر بتكوين مجموعة عمل دائمة من كل المختصين مهما تكن انتماءاتهم السياسية ؟!

ومشكلة التموين التى يوشك العجز عن حلها أن ينقص من هيبة الدولة نفسها لا هيبة الحكومة فحسب !!

فما عسى أن يظن الناس بدولة تعجز عن مواجهة فساد بعض الجزارين والتجار والمضاربين بأقوات الشعب ، ممن يحققون أرباحاً طائلة ، ويحرمون الشعب من ضرورات الحياة ؟!

الحلول مطروحة ، ولكنها لن تلقى فى الطريق العام .. وأنا أعرف أن لدى الأستاذ الدكتور فؤاد مرسي وغيره من المختصين حلولاً عاجلة .. فلماذا لا يدرس الحزب الحاكم هذه الحلول وأنا أرى أن المشكلة الاقتصادية بكل أبعادها فيها اجتهادات طيبة من الأساتذة الدكاترة رفعت المحجوب ومحمد زكى شافعى وإسماعيل صبرى عبد الله وعمرو محى الدين .. وهم ليسوا من حزب الحكومة ، وبعضهم لا ينتمى لأى حزب على الإطلاق .

لماذا لا يشكل مجموعة عمل دائمة من كل المختصين ، ويتبنى ما تقدمه هذه المجموعة من حلول .

وعشرات المشاكل الأخرى تلوث الهواء والماء وفتك الضوضاء بالأعصاب .. هذا التلوث بما يمثل من أخطار على صحة المواطنين .. وصحة الأبدان ، وصحة النفوس والعقول ثم الاكتفاء الذاتى فى الزراعة .. وأمامنا تجربة الهند .. ثم مواجهة انهيار المرافق العامة .. ثم مشكلة الأمية .. والتعليم والثقافة .. ثم عدم المبالاة والتسيب وضعف الإحساس بالانتماء .. كل هذه المشاكل .. التى يتأخر حلها ، ولا يبدو فى الأفق ما يبشر بالحل ،، مما يصدم المواطنين ، فتهتز ثقتهم فى الدولة .. وهذا خطر كبير .. فليس المهم أن تفقد الناس الثقة فى حكومة ما فالحكومات تتغير ، والنظام الديمقراطى قوامه التغير الذى يفرضه الشعب من خلال الحريات الديموقراطية ، وأولها حرية التعبير .. أقول ليس المهم أن يفقد الشعب ثقته فى حكومة ما فيغير الحكومة العاجزة بحكومة قادرة .. ولكن الخطر الحق هو أن يفقد الشعب ثقته بقدرة الدولة نفسها وبهيبتها ا.. وهذا إحساس حتمى ينمو إذا استمر العجز عن حل المشاكل حتى تلك المشاكل التى لايتطلب حلها شيئاً إلا احترام القانون : كمشكلة تلوث الماء والهواء والضوضاء .. وكمشكلة الأمية .. ولدينا قانون اسمه قانون التعليم الإلزامى .. وآه من مشاكل الثقافة والتعليم !!! يجب أن ننادى جميعاً بالتعاون الجاد من أجل حل مشاكلنا التى يوشك التأخير فى حلها أن يشيع اليأس والإحباط ، فضلا عن فتك تلك المشاكل بحياة الناس .. إننا نملك مجموعة من المجالس المتخصصة ، هى

المجالس القومية المتخصصة ا ، وفيها صفوة العلماء والمفكرين والمختصين فى كل فروع المعارف والخدمات والإنتاج .

هل فكر أحد أن يستفيد بما انتهت إليه هذه المجالس من دراسات للمشاكل ومن اقتراحات لحلها !.. وإلا ففيم كل تعب العاملين فيها ؟!

إن لدى هذه المجالس المتخصصة حلولاً لكل مشاكلنا ، وما على المسئول الرسمى الذى يبحث عن حل مشكلة من مشاكلنا إلا أن يخاطب الدكتور محمد عبد القادر حاتم المشرف العام على هذه المجالس .. وسيجد المسئول المهتم بحل أية مشكلة ما ينشده من حلول .. يجب أن تبحث الحكومة عن الحلول فى كل مظانها ، وعند كل المتخصصين بلا حساسية ، فليس العبرة فيمن يقدم الحل ، بل فى أن نجد الحل .

إننى أوجه إلى الأحزاب المصرية الرسمية، وإلى كل القوى السياسية الأخرى وإلى جميع الكفاءات ، وإلى المجالس المتخصصة ، نداء عاجلاً أن يتفقوا على شكل للقاء، لينتهوا إلى تقديم حلول لمشاكلنا ، وما على المسئولين فى الحكومة إلا تنفيذها فإذا عجزوا فليفسحوا المجال للقادرين .

لست أدرى من الذى يجب أن يبادر بدعوة الآخر ، فليبادر أى حزب أو أى تجمع آخر كالمجالس القومية المتخصصة .. فليبادر أحد ما .. أى أحد إلى دعوة المتخصصين لمواجهة سريعة للمشاكل وهى جميعاً قد درست من قبل فلتقدم الحلول إلى الحكومة أمام أعين الشعب .. ليكون رقيباً وحسيباً ..

من المقلق حقاً ، أن ما نواجهه من المشاكل يتفاقم ولا وقت لدينا نضيعه فى الصمت أو فى معارك لا جدوى منها .. ونحن قادرون على الخلاص الفورى .

إن مشكلة واحدة كمشكلة الأمية كلما أهملت أصبحت تشكل عبئاً من التخلف .. وهى بعد عارنا جميعاً فكيف ننتظر أن يصنع التقدم شعب تتزايد فيه الأمية على هذا النحو الرهيب الذى نراه ؟! ومع ذلك فأين المبادرات لحلول سريعة وحاسمة .. ؟ إن مشكلة تزايد السكان يمكن أن تتحول سلبياتها إلى إيجابيات ! يمكن أن تتحول الكثافة السكانية إلى قوى منتجة ، لو أننا أحسنا الدراسة والإفادة بتجاربنا القديمة ، والتجارب الحديثة التى أضافها الآخرون .. ولننظر إلى اليابان كيف جعلت من الكثافة السكانية قوة إنتاج بدلاً من أن تكون عبئاً وكيف تقدمت حتى

سبقت الدول الصناعية التقليدية ، على الرغم من أنها لا تملك المواد الخام ، ونحن نملك من المواد الخام أضعاف ما تملكه اليابان .. وليس شعبنا بأقل نشاطاً أو حباً للعمل .. ولكن الذى ينقصنا هو المنهج والتخطيط .. وهذا أمر يجب أن تشارك فيه كل الكفاءات والعقول مهما يكن انتماؤها السياسى أو الفكرى .. كفى ما ضاع من وقت .. فليوجه كل منا إلى أخيه هذا النداء .. فالمبادرة الحاسمة مسئولية كل صاحب رأى فكر ، وكل قادر على العمل ..

فإذا قصرنا فى النهوض بهذه المسئولية ، وإذا أضعنا الوقت فى معارك لا جدوى منها ، فنحن نتخلى عن أقدس واجباتنا إذن ، ونخيب آمال الشعب .. ولن يغفر لنا الله ولن يرحمنا الشعب !!.

١٩٨٣/٥/١١

محنة الكتاب المصرى

لست أدرى إلى من أوجه هذا الحديث .. إلى المسئولين عن الثقافة ، أم إلى المسئولين عن المال والاقتصاد .

فليكن الحديث موجها إلى كل من تعنيه سمعة مصر ، إلى كل من يضنيه انحسار دورها الثقافى الرائد ، إلى كل من يشقيه خضوع الثقافة لأهل الاقتصاد والمال ؟!

ذلك أن مصر التى عرفها العرب والمسلمون منذ قرون عديدة منارا للثقافة الإسلامية والعربية ، ومنبعا للمعارف الإنسانية ، وقد أخذت تنطوى على نفسها ، وتلم من طرق الحياة شباكها ..!

وما كنت أعرف هذا حتى فوجئت ببعض الناشرين العرب يشكون من غياب الكتاب المصرى عن القراء العرب !!

وإذا هم يعجبون للقوانين التى تعامل الكتاب الذى هو أول منابع الثقافة ، كما تعامل غيره من الصادرات !!

وهم يقسمون على أن هذه القوانين التى أريد بها ملء الخزانة المصرية بالعملة الصعبة من بيع الكتب المصرية فى الخارج ، قد ضيقت نطاق التوزيع ، فأصبح الكتاب المصرى - وهو سلعة كانت مطلوبة فى كل وقت - سلعة لارغبة لأحد فيها ، لأن سعره لا يطاق .. وهكذا أفقروا الخزانة بدلا من أن يغنوها !! فالكتب التى تطبع

خارج مصر توشك أن تقضى على ماتصدره مصر من كتب .. فهى أجود طباعة وأحسن ورقا ، وأقل سعرا ، وهى سهلة التداول بلا تعقيدات .

إن الناشر المصرى مرهق بأعباء الجمارك على الورق ومواد الطباعة ..

والجمارك تعامل الثقافة كما لوكانت مادة ترف ، لامادة حياة ..

ألا ينبغى أن نعامل الثقافة كما نعامل الخبز ؟! ألا ينبغى أن نخفف الأعباء عن الناشرين ليستطيعوا أن يصدروا الكتاب القيم بالثمن البخس كما تعودت مصر دائما !!

ورحم الله زمانا كان راتب خريج الجامعة فيه خمسة عشر جنيها ، وكان متوسط سعر الكتاب الجيد عشرة قروش !!.

فكيف يصبح ثمن مثل هذا الكتاب اليوم نحو خمسة جنيهات ، وراتب خريج الجامعة لايزيد على ثلاثين جنيها ..؟! أيليق هذا بنا ؟!

ثم نشكو ونتوجع من محنة الثقافة فى داخل بلادنا .. !!

كان يجب ألا يزيد ثمن الكتاب الجيد عن عشرين قرشا ، ليكون فى مقدور المتعلمين من طلاب وخريجين أن يملكوا مايغنيهم بالمعرفة ومايقدم لهم المتاع الروحى والعقلى الذى يحتاج إليه المواطن المصرى بمسئوليته عن بناء مستقبل هذا الوطن ، وعن النهوض بزيادة الإنتاج ، وعن قيام مجتمع متكافل متراحم متعاون حتى يثقف عقله بالمعرفة ، ويهذب ذوقه بالثقافة ..

إن القارئ المصرى يواجه من أعباء الحياة وهمومها مايشغله عن القراءة ..

وأمامه فى الوقت نفسه مايصرفه عن الاهتمام باقتناء الكتاب .

فمتى يجد الوقت ليقرأ وهو يعود إلى بيته منهكا بعد تعذيبه فى وسائل المواصلات .

وحتى إذا استراح واستقر فى بيته ، لم يجد أمامه ما يسليه غير التليفزيون فى بيته وأفلام الفيديو ؟!..

حسبه عوامل تصرفه عن القراءة !!! فلاينبغى أن نضيف إليها عاملا آخر : وهو ارتفاع ثمن الكتاب إلى المستوى الذى يعجز القراء !!

لقد أصبح تعداد مصر نحو سبعة وأربعين مليونا .. ومع ذلك فما هو أعلى توزيع الكتاب الجيد - ولا أقول الممتاز - نحو مليون نسخة .. وهذا التقدير متواضع جدا بالقياس إلى عدد السكان .. أو حتى إلى عدد الذين يجيدون القراءة والكتابة .. ولكن الكتاب الممتاز فى مصر أصبح لايوزع مع الأسف إلا عدة آلاف .. تصل فى حالات استثنائية إلى عشرات الآلاف .

وما أظن أن خزانة الدولة تستفيد من حصيلة الجمارك على ورق الكتب ومواد الطباعة . فتثرى بقدر ما يفلس العقل !! وهذه مأساة حقا .. !!

وكل محب لهذا الوطن ، وكل حريص على مستقبله ، مطالب بأن يقدم حلا . واعتقد أن الحل يسير فلينظر أهل المال والاقتصاد كم تكسب مصر من مال من ارتفاع ثمن الكتاب وكم تخسر مصر من ثروات روحية وعقلية !!

أنا لا أطالب الدولة بأن تدعم الكتاب .

ولو طالبتها لما عدوت المطالبة بما هو واجب عليها لعقول المواطنين وقلوبهم وأذواقهم .!

ولكنى أطالبها أن تعفى من الجمارك كل مانستورده لإصدار الكتب من ورق ومواد طباعة .. أممكن هذا ؟!.

وسترى الدولة بعد حين أنها هى الرابحة .. لأنها ستكسب المواطن المستنير المتحضر .. وهو ثروة يجب أن تحرص على اقتنائها . ويجب أن تحافظ عليها .

ويجب أن يعمل المسئولون عن تربية العقل المصرى على تأصيل عادة القراءة منذ الطفولة ، وفى كل مراحل العمر ..

إن الكتاب الجميل الأنيق . الذى يغرى الناس باقتنائه ، تهذيب للنفس والحس ، وتربية للذوق أيضا ..

ولعلنا نشعر مما يعانيه الشارع المصرى أننا فقدنا كثيرا من مقومات الذوق الرفيع ، وأوشكنا أن نقضى على حاسة التذوق الفنى .. ألسنا مطالبين بأن نصوغ الذوق المصرى من جديد على نحو يليق بتاريخنا الحضارى وبما نريد أن نحققه من تقدم ؟!

إننا لانكتب لنملأ صفحات .. أو لنطرح عن أنفسنا مايثقلها .. وينبغى ألا يكون ما نكتبه دخانا فى الهواء ..! ومعذرة إلى الأستاذ الكبير جلال الدين الحمامصى وهو صاحب العمود بهذا العنوان !!

فلتنفر طائفة من المسئولين عن الثقافة والنشر والمال والاقتصاد مهما تختلف انتماءاتهم السياسية والفكرية وليلتقوا ليبحثوا مشكلة الكتاب المصرى داخل مصر .. فهى ليست مشكلة الحكومة القائمة وحدها .. ولكنها مشكلة مصر كلها بكافة أحزابها . وقواها السياسية والفكرية . إن جهد الحكومة فى حل مشكلة النشر هو مانراه الآن .. فلم لانلتمس الحل من هذا اللقاء بين مختلف القوى ؟!..

إن اللقاء بين مختلف القوى فى مصر حول مصير مصر وتقدمها هو السبيل الوحيد الصحيح لحل كل مشكلاتنا .. فليس ضعفا من المسئولين أن يستعينوا بآراء أخرى .. فمن جدلية هذا الحوار سيخرج الوطن بالحلول الصحيحة .

فليذكر الذين قد يجدون حرجا فى الاستعانة بالآراء الأخرى أنه ما من سبيل إلى الخطأ مثل الاستئثار بالرأى .. وأن الشورى طريق إلى الصواب .. بل هى الطريق الوحيد إلى الصواب .. وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى حاجة إلى أن يستشير صحابته ، ولكن ما من أحد كان أكثر استشارة لأصحابه منه .. فليتدبر المسئولون

العـبـرة مـن هـذه السـيـرة الـزكـيـة .. وليـتـدبروا الحكمـة فى أن يأمـرنا الله تعـالى بالشورى .

والكتاب المصرى فى الخارج يعانى من محنة أشد .

ذلك أن المسئولين عن المال والاقتصاد يعاملون الكتاب لا كرسالة مصرية إلى الأخوة العرب ولايعاملونه حتى كإحدى سلع التصدير .. !!

والكتاب يعانى من قيود باهظة فهناك أكثر من جهة لمراقبة الكتاب الذى يصدر إلى الخارج .

وبعض هذه الجهات ليست مختصة وفوق مستوى الشبهات !.

وفيها من يفرض على الناشرين إتاوات ، ويبتزهم ابتزازاً .. !

وقد بدأت الروائح الكريهة تتصاعد وتزكم الأنوف !!. وما من شئ فاجع مثل وجود الدنس حيث يجب أن تسود الطهارة !!..

أنا أنصح الذين يعانون من هذا أن يقدموا شكاواهم إلى الرؤساء الكبار المسئولين .. فهم إن عرفوا وتحققوا لن يسمحوا لهذه الوصمة أن تستمر !!

وأنا لاأقول ألغازا .. ولاأريد أن أوجه اتهامات إلى أحد ولادليل عندى غير شكوى من هذا الناشر أو ذلك ..

ليس من حق موظف منحرف أن يشوه مؤسسة بأسرها .

فى كل بلد منحرفون .. ولكن مطاردتهم واجب قومى ..!

وهذا نذير !! فهل تغنى النذر ؟!

فإذا جاوزنا الفساد الذى يشكو منه بعض الناشرين ، فهناك تعقيدات لامبرر لها .. ولا أدري لماذا وضعت كل هذه التعقيدات أمام تصدير الكتاب المصرى .. وكان

الذين وضعوا القوانين واللوائح يتعمدون أن يسجنوا الكتاب المصرى داخل مصر .. عاملوا الكتاب كأى سلعة أخرى على الرغم من أنه أرفع من ذلك وأهم .

إننا لنعانى حتى من إرسال نسخة واحدة هدية لصديق أو لقارئ طلبها من خارج مصر ولم يجدها .. أنسينا يوم كان المثقفون والأدباء العرب يؤثرون المجلات الأدبية المصرية ودور النشر المصرية بإنتاجهم ؟!.

أنسينا فخرهم وزهوهم بأنهم نشروا إنتاجهم فى مصر ؟!.

إن هذا الزمان لم يذهب فى النسيان بعد .! ولكننا اليوم نجد الكاتب أو المفكر المصرى يهرب إلى خارج مصر ليطبع إنتاجه .. إنه يهاجر بعقله من أذى القوانين وسلطان لوائح لا علاقة لها بالثقافة !!!

من قبل كان النشر كله مهنة حرة ، ودور النشر يملكها فى مصر أفراد .. ومع ذلك استطاع الكتاب المصرى أن يصل إلى كل مكان فيه قارئ للغة العربية ..

حتى أمريكا اللاتينية !!.

والدولة تملك اليوم أكبر دور للنشر ، ولها من الوسائل والممكنات ما لم يتح قط لأولئك الناشرين ، فكيف يتخلف الكتاب المصرى عن النهوض بمسئوليته التاريخية فى التنوير ، وفى تغذية الوجدان العربى كله ..؟!

قال لى بعض الناشرين العرب الذين جاءوا إلى القاهرة فى معرض الكتاب أن الذى يتعامل منا فى توزيع الكتاب المصرى يعامل كما لو كان متهما بالتهريب بادئ ذى بدء .. !! هكذا تعامله القوانين واللوائح التى تنظم توزيع الكتاب المصرى فى الخارج !.

وهذا شئ مهين ومنفر ، يجعل الكثيرين من الناشرين يعزفون عن توزيع الكتاب المصرى إيثارا للعافية وراحة البال ، وتوفيرا للكرامة .. هذه واحدة .

وأخرى أن الكتاب المصرى تخلى عن أناقة الطباعة ، وجمال المظهر ، ودقة التصحيح .. ربما لأن الأعباء المالية مرهقة ولاتمكنه من الاحتفاظ بتقاليد الدقة والأناقة التى اشتهر بها الكتاب المصرى .

أما ثالثة الآثافي كما يقولون فهى طريقة التعامل المالية .. فالقوانين واللوائح التى تحكم توزيع الكتاب فى الخارج تنص على التعامل بالدولار .. وللدولار أكثر من سعر .. ولكنها تصر على التعامل بالسعر الرسمى لا السعر الواقعى .. وتجرى الحسابات على أن الدولار يساوى ثمانين قرشا مثلا ، الكل يعرف أن سعره الواقعى أعلى من هذا بكثير وتكون النتيجة مضاعفة سعر الكتاب المصرى . فإذا القارئ يجد أمامه كتابا مرتفع الثمن ردئ الورق ، وكتابا آخر جميلا جيد الطباعة بثمن أقل !! فلا خيار أمام القارئ إلا العزوف عن الكتاب المطبوع فى مصر إلى الكتاب المطبوع خارج مصر !..

وبعد هذا نشكو من محنة الكتاب المصرى !!

إن هذه القوانين ، واللوائح هى التى تصنع المحنة ، وهى تتجاهل دور الكتاب المصرى وتهدر تاريخه .

وهى تحدد الكتاب المصرى فى دائرة توزيع هزيلة داخل مصر وخارج مصر !! .. وإذن فأين دور مصر ؟! هل أدركه واضعو هذه القوانين واللوائح ؟!

وبعد هذا نشكو من فقدان الترابط الوجدانى الذى عرفه من قبل القراء والكتاب العرب !!

كيف يتاح لنا أن نتقارب ، ونحن نضع من القوانين واللوائح ، ما يحتم علينا أن نتباعد وأن يجهل بعضنا فكر بعض ؟!.

إن هذه القيود على الكتاب المصرى الذى نصدره ترهق أيضا الكتاب العربى الذى نستورده حتى إن كان لكاتب مصرى !!

إننا لنعجب كيف يجهل العربى اليوم على أخيه العربى ! وما له لايجهل عليه ويمزقه وهو لايعرف عنه شيئا ..؟!

إن الكتاب أداة تعارف بين العقول العربية والقلوب العربية .. وأداة توحيد للمشاعر .. وأداة تفاهم .. ولن يفهم العربى أخاه العربى حتى يعرف كيف يفكر ويشعر ،

وكيف يتعامل مع الحياة ، وكيف يناضل ليصوغ المستقبل الأفضل ..

ما من شئ يمكن أن يتيح هذا كله مثل التعرف على ثمرات الفكر ..

الكتاب ليس سلعة ياسادة كسائر السلع !!. وحتى إن كان سلعة فله طبيعة خاصة لأنه .. أداة تعارف ومعرفة ..

ما من شئ مثل الكتاب يمكن أن يخلق بين أبناء اللغة الواحدة ذوقا مشتركا وفكرا مشتركا يستطيع مهما يختلف فى التفاصيل . أن يوجد من المشاركة الوجدانية هذا القدر الذى يغرس حب الآخرين ويؤلف بين القلوب ..

أنا أطالب الحكومة مرة أخرى أن تعيد النظر فى هذه القوانين واللوائح التى تكبل انطلاقنا الحضارى وتقيم السدود أمام اللقاء الروحى والعقلى بين العرب وتهدد الدور التاريخى لمصر الثقافة ..

فلتدع الحكومة كل المهتمين بالنشر والثقافة ورجال المال والاقتصاد الذين يعنيهم النشر .. فليلتقوا على حلول لمشكلة الكتاب المصرى فى الداخل .. وأنا أرجو أن يهتدى المسئولون عن توزيع الكتاب المصرى فى الخارج بآراء الناشرين العرب الذين يشتركون فى معرض الكتاب .. إن وجودهم هنا فرصة يجمل بنا انتهازها وصولا إلى الحل ..

أليس محزنا حقا أن يعانى الكتاب المصرى مثل هذه الأزمات ولدينا عشرات الجامعات والمعاهد العليا بعد أن كان الكتاب المصرى رسول ثقافة ومحبة حين لم نكن نملك إلا جامعة مصرية واحدة . ؟ !

أعيدوا النظر يارجال المال .. فلو أن الكتاب المصرى المصدر إلى الخارج عومل على أساس الجنيه المصرى لا الدولار لأمكن أن يباع بسعر أقل وبتوزيع أكبر .. ولعاد على الخزانة بأموال أكثر ..

أرجو أن تجلسوا وتبحثوا وتنتهوا إلى قرارات تنقذ الكتاب المصرى من محنته قبل أن يأتى يوم ينفض فيه الناس تماما عن الكتاب المصرى فى الداخل والخارج .

ولن يأتى هذا اليوم لأن المثقفين المصريين قادرون على أن يفكوا الحصار من حول الكتاب لينطلق كما كان وأوسع مما كان يضئ ما حوله بالمعرفة ، ورسولا لمصر إلى الآخرين بعطاء لاينفد من الفكر والمتاع الروحى .

الرقابة والثقافة

ماذا قدمت الرقابة للثقافة .. « أمنعت شرا . ؟! »

أدفعت الثقافة فى طريق النبالة ؟! » « أحضت الثقافة على حماية مكارم الأخلاق ؟! » « أحققت الرقابة شيئا من القيم الفاضلة ؟! » أى شئ كان يمكن أن يحدث للثقافة فى بلادنا لو أنها تحررت من الرقابة .. أكان يمكن أن ينحسر مدها أكثر مما انحسر ؟. أكان يمكن أن تهبط إلى أدنى مما وصلت إليه .. أم أنها بلا رقابة كانت حرية بأن تحلق فى آفاق أخرى ، وبأن تنطلق فى طريق التقدم بلا أصفاد تكبل خطواتها ؟!.

لاريب أنه لابد من ضوابط فى كل مجتمع ، لابد من أجهزة تقوم على حماية حسن الآداب . ولكن فلننظر فى بلادنا التى تشهد ألوانا عديدة من الرقابة على الثقافة وفى البلاد الأخرى التى تنطلق فيها الثقافة محررة من كل قيد إلا سلطان ضمائر الذين يصنعون الثقافة ويقدمونها إلى شعوبهم ..

ويحسن أن نتفق على أن الثقافة تشمل أدوات شتى من المعارف : فيها الكتاب ، والفنون التعبيرية من مسرح وسينما وأشرطة تليفزيونية وإذاعية ، وفيها الفنون التشكيلية من تصوير ونحت ، وفيها إلى جوار ذلك معطيات الفكر الإنسانى ، وفيها نمط الحياة الذى تصوغه الأعراف والتقاليد والموروثات ..

فماذا صنعت الرقابة بكل هذه الألوان أو الأنواع من المعارف التى تتألف منها

الثقـافة والتى إن ارتفع مستواها تحقق للأمة ثراء روحى عظيم وغنى مادى ضخم ، وأنشأت الأمة لها حضارة زاهرة ، ومدنية متقدمة !

أما الكتاب فوا أسفاه على الكتاب المصرى .

هل ارتفعت الرقابة بمستواه ؟!

إذا أردنا أن ندرك على التحقيق ما تصنع الرقابة بالكلمة المطبوعة فلننظر فى صحافتنا تحت الرقابة ، وفى صحافتنا حين تتحرر من الرقابة .. أنه مهما يكن حظ الرقباء من سعة الأفق ، ومهما يكن قدر المشرف على الرقابة من الفطنة والحكمة والسماحة ، فإن الصحفيين والكتاب الذين يحررون هذه الصحف يشعرون بأنهم مقيدون .. وفى ظل الإحساس بالقيد لايمكن للملكات المبدعة أن تحقق شيئا ، ويستحيل على الطاقات المنتجة أن تبدع إلا مايطيقه الرقيب !.

والرقيب مهما تكن فطنته وحكمته وثقافته ليس هو نفسه حرا ، ولكنه أداة فى نظام أو أداة لنظام يحمى نفسه بالرقابة .. فالنظام من أجل ذلك يجعل مناطق محرمة على الفكر ويضع قيما خاصة يحاول أن يفرضها على المجتمع . ويقهر عليها المواطنين !

وفى جو كهذا تختنق الأنفاس ، وتسحق زهرات الإبداع بدلا من أن تتفتح وتصبح الصحافة هى ماتشرعه السلطة الحاكمة ، لا ماتحكم به شريعة التطور ، ولا مايقتضيه التعبير عن أشواق الإنسان المتطلع إلى ماهو أكمل وأفضل وأنبل ..

وتفقد الكلمة طبيعتها إن لم تفقد معناها .. وتصبح على أية حال غير جديرة بأن تكون وسيلة للتنوير ، ولا أداة للتعبير ! هذا مايحدث للكلمة المطبوعة فى صحيفة كانت أم فى كتاب ..!

وأنا لا أستطيع أن أفهم جدوى الرقابة على الكتاب ..!!

وقد ألغيت الرقابة على الكتاب والحمد لله ، ولكن الكتاب لم يكد يتحرر حتى ظهرت رقابة جديدة ، فرضت نفسها على الأمر الواقع بلا قانون ينظمها !! وهى ما يمكن أن نسميه بالرقابة الدينية ! فما حكايتها ؟!.

ما يمكن أن نسميه بالرقابة الدينية ! فما حكايتها ؟!.

إنه على الرغم من وجود أقسى أنواع الرقابة وهى الرقابة الدينية فالكتب المنافية للدين وللآداب تغمر الأرصفة وتعمر مكتبات بأسرها فى قلب المدن الكبرى ، وما من أحد يحتج عليها أو يقيد تداولها !!

الكتب المخربة التى تهدم قيمنا ومثلنا وتهدر الأخلاق تقتحم العقول والأذواق فى كل مكان ، وما من رقابة استطاعت أن تمنعها !

انتهت الرقابة الرسمية على الكتاب لتحل رقابة أخرى انتزعت لنفسها حق الرقابة على الفكر ، ألتكون محكمة تفتيش جديدة ، أم لتحمى القيم الدينية وتصونها ؟!

فلتحاسب رئاسة هذه الرقابة أعضاءها .. فلتسألهم عما يملكون .. أنى لهم كل هذا ؟! إنها مسئوليتنا جميعا .. ! الارتفاع بسمعة مؤسساتنا الدينية لتكون فوق الشبهات ..! اسألوا الناشرين ، يحدثوكم عما عانوه ، وعما يعانون من هذا اللون الغريب المستحدث من ألوان الرقابة ... الذين يتقاضون رواتب من الدولة للقيام بهذه الرقابة ، لماذا يطالبون الناشرين بأموال أخرى !!؟ ما اسم هذا المال شرعا - وقانونا ؟!

لقد حذرنا الذين يستغلون مواقعهم فى هذه الرقابة .. وسنظل نحذركم .. فهل أنتم منتهون ؟

ولكن الأمثل والأجدى أن نحرر المؤسسات الدينية من هذه الرقابة .. وأن نضعها فى حدودها ، وأن نختار لها أسلوبا يليق بجلال الدين .. ورجالات خليقين بطهارة هذه الرسالة ..

أما الوضع القائم الذى أصبح فضيحة يتناقلها الناشرون ويتنادون بها ، فأنا أرجو أن يعمل المسئولون عن المؤسسات الدينية على إنقاذ مؤسساتهم من هذا الوضع .. قبل أن تنفجر القاذورات ، فتصب بأدرانها كل شئ !!

إن الحرص على حسن سمعة هذه المؤسسات وعلى طهارتها ، يحتم علينا المصارحة والمواجهة والحسم فى العلاج .

إن هذه الرقابة التى تنتسب إلى الدين لم تمنع كتابا واحدا منحلا يهدم قيم الدين .. أمسئولة هى إذن عن انتشار هذه الكتب ، وعن انتشار الكتب الغريبة التى تجافى تراثنا الفكرى وتطلعاتنا الحضارية ؟!

لكم أحب أن يلزم كل إنسان حدوده .. وأن يلتزم العاملون بالمؤسسات الدينية حدود رسالتهم ، فيفقهوا الناس فى الدين ، ويأمروا بالمعروف . وينهوا عن المنكر ، ويدعون للخير وينشرون مكارم الأخلاق التى جاء الرسول صلى الله عليه وسلم مكملا لها .

أما أن يحاولوا فرض وصاية على الثقافة والفكر ، فما هى إلا طريقة للبحث عن أسباب جديدة لفرض الإرهاب والابتزاز !! وفى السكوت على هذا كله إساءة لمؤسساتنا الدينية .

ولو أننا بحثنا فى حصاد عمل هذه الرقابة على الكتب ، لوجدنا عجبا .. ! لوجدنا كتب الانحلال الخلقى تنتشر آمنة مطمئنة .. ووجدنا الكتب التى تحوى فكرا أو ثقافة هى التى تطارد ..

وأما كتب الدين المقصودة أصلا بهذه الرقابة ، فقد تحولت إلى مورد خصب للإتاوات ، ومجال للابتزاز ..

وما أبشع أن تجد الدنس عند من ينبغى أن نلتمس منه الطهارة !!

ونتحدث عن أشياء أخرى غير الكتاب والكلمة المكتوبة .

لست أدرى ما الذى أقحم بعض المؤسسات الدينية فى مجالات لا شأن لها بها كالسينما والمسرح !!

لقد جعلت من نفسها جهة رقابة وأنا أعيذها أن تكون مسئولة عما يعرض فى المسارح ودور السينما ، وصالات العروض المختلفة فى شارع الهرم !!

أراضية هى عن ذلك كله ؟! أراضية هى عن كل ما يقدمه الفيديو ؟! فإذا لم تكن راضية ، فلماذا تتصدى لبعض الأعمال فتمنعها أو تعطل عرضها ؟!

إن هذه الرقابة لم تتعرض لعمل واحد من كل الأعمال الهابطة فى المسارح ودور السينما وشارع الهرم وأشرطة الفيديو ! ولا حتى مايتسرب من التليفزيون أحيانا !!!

ولكنها منعت عرض المسرح الإسلامى الجاد الذى كان حريا بأن يغنى المسرح ببطولات إسلامية ، وبأعمال مسرحية جادة ، بدلا مايعانيه ذوقنا وتعانيه آدابنا ، وقيمنا الدينية وأعرافنا وتقاليدنا النبيلة .

إن هذه الرقابة لم ترفع صوتها حتى بكلمة احتجاج واحدة ضد البذاءات التى يقذفها بعض منتجى السينما وأفلام الفيديو على ذوقنا وآدابنا !!

ولكن هذه الرقابة اعترضت على فيلم الرسالة !!

وهو الفيلم الذى عرض فى جميع بلاد العالم إسلامية وغير إسلامية .. والذى جذب أعداداً من غير المسلمين إلى التعرف على الإسلام ، والدخول فيه !!

كانت الحجة أن المملكة العربية السعودية قد اعترضت على هذا الفيلم !!

فلما عرضت المملكة العربية السعودية هذا الفيلم فى التليفزيون السعودى ، ونال استحسانا ، أصبحت الحجة أن السعودية قد عرضت الفيلم .. فإن سمحت جهة الرقابة الدينية التى كانت قد اعترضت على الفيلم بعرضه اليوم ، لأوحت إلى الناس بأنها تابعة للسعودية .

عجبا !! لماذا تنهض هذه الرقابة لمطاردة الأعمال الجادة ، وتؤثر السكوت عما يسىء إلى الأخلاق العامة ، ويزرى بمبادئ الإسلام ، والآداب ، ويدمر نفسية المواطن !!

أتعـرف هذه الرقـابة الدينيـة إلى أى مـدى أخـرت تطورنا الفنى بمطاردتهـا المسرحيات الجادة التى تتحدث عن بطولاتنا الإسلامية ، والأفلام الجادة التى تصور عظمة الإسلام !!

أتعرف هذه الرقابة كم تدمر من قيم ثقافية بسكوتها عما يشيع الانحلال ، ومكارم الأخلاق والتمسك بالقيم الفاضلة ؟! لمصلحة من تعمل هذه الرقابة .. ليس للإسلام قطعا ؟! فلننظر فى البلاد التى تحررت من سلطان الرقابة وفى بلادنا ... وما السبب ؟! ماسبب هذه السياسة ؟! السبب شخصى !! والعيب يكمن فى أشخاص بعينهم هم أنفسهم الذين يفرضون رقابة على الكتاب يحولونها إلى ابتزاز !! وهو شىء يجب أن تغسله بحار من دموع الندم فإن لم يندموا ففى السلطان وازع !!

فلننظر إلى أى مدى تقدمت الثقافة فى هذه البلاد ، وتقدمت الثقافة بهذه البلاد ..

أما نحن ! فياحسرتا على العباد .. !

هبط الذوق العام فى السنوات الأخيرة هبوطا لم تعرفه مصر من قبل ..

سيطر الإحباط على نفوس الشباب المتطلعين إلى ما هو أفضل وأنبل ، وهم عصب المستقبل .

اتسعت الفروق بين الطبقات ، وازداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا .. فقد العمل شرفه وقيمته ، ولم يعد العمل هو الذى يحدد قدر الرجل أو دخله كما كان أو كما يجب أن تكون الوسائل الاحتيالية والتهريب ، والاتجار فى السوق السوداء ، وضربات الحظ والمضاربة ، والوسائل الطفيلية .. أصبح كل ذلك هو منبع الثروة وأداتها !! أصبح الرجال يقومون بما يملكون من مال مهما يكن طريق وأسلوب اكتسابه ، لا بما يعمر قلوبهم من قيم ، أو عقولهم من معارف .. !! وهكذا ظهرت طبقة غريبة من الأغنياء يستهلكون ولايفيدون أو يضيفون !!

ومن قبل أنشأ أغنياء مصر الجامعة أقاموا قلاع الصناعة والاقتصاد من مصانع

ومصارف ونحوها ! وأسسوا كلية الفنون الجميلة ، ورعوا الفنانين ، وشجعوا الآداب ، وطوروا فنون الطباعة والنشر ، وأغنوا الحياة الاجتماعية والثقافية بما قدموه .. أسسوا دار الأوبرا ، فحرقناها !!

أما أغنياء هذا الزمان .. هؤلاء الأغنياء الجدد .. أغنياء عصر الانفتاح الاستهلاكي ، فلا يقدمون شيئا ، بل يستهلكون .. وإن قدموا شيئا لم يقدموا غير المسرحيات البذيئة وغير الأفلام الهابطة وشرائط الفيديو التي تفسد الذوق وتدمر الأخلاق !!

قديما لم تكن هناك رقابة دينية .. بل قدمت فرقة فاطمة رشدي مسرحية يوسف وزليخا ، وظهر أحمد علام على المسرح في دور سيدنا يوسف ، وفاطمة رشدي في دور زليخا !! ولم يحتج أحد من علماء الأزهر ، وعلم الناس كثيرا من القيم الفاضلة ، وأكبروا عصمة الأنبياء من خلال تلك المسرحية ..

في ذلك الزمان كان أدباؤنا الذين يكتبون فنون الأدب قد اتجهوا للكتابة في الإسلاميات فرحب بهم علماء الأزهر في ذلك الزمان ، وعلى رأسهم شيوخ الأزهر فأقاموا حفل تكريم للدكتور محمد حسين هيكل .. وحين أتهم بعض المتزمتين عباس محمود العقاد بالطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه كتب عنه كتابا أسماه عبقرية محمد وزعموا أن العقاد ينكر النبوة ، ويتهم محمدا بأنه عبقري لا نبي ، ويضع كتابا عنوانه عبقرية محمد دون أن يقول عليه الصلاة والسلام !! حينئذ تصدى شيخ الأزهر المراغي ، وكتب مدافعا عن العقاد ، رحمهما الله وتطوع بكتابة مقدمة للطبعة التالية .. !

وفي ذلك الزمان لم تكن المكتبات تعرف إلا كتب الأدب والدين والعلم والفلسفة وشتى المعارف .. ولم تكن الكتب المنحلة تعرف طريقها إلى القراء أو تتحدى سافرة في الطرقات أو تقتحم العيون والأفكار !!

في ذلك الزمان كان المصري مثالا للذوق المصفى المتحضر .. لم يكن أحد يدفع أخاه ليسبقه بل كان يتنحى له ليتقدمه ..

وكان الشباب ينهضون من مقاعدهم فى الترام أو الأتوبيس ليجلسوا مكانهم الشيوخ والنساء والأطفال ..

فأين ذلك الذوق مما غشينا الآن ؟! فى ذلك الزمان كانت شوارع القاهرة نظيفة ، يفوح فيها عطر الياسمين وعرف أشجار تمر الحنة وعبق الفل ..

كانت بيوت القاهرة ذات حدائق وشوارعها النظيفة عامرة بالأشجار والظلال ..

ماكنت تسمع حيث تسير إلا تغريد الأطيار ، أو أنغام البيانو !!

ما ترى عيناك إلا الخضرة ، أو ألوان الورد ، وغير الوجوه الوضيئة الباسمة والبيوت جميلة الطراز !!

أين هذا كله من الغازات السامة التى تخنق المارة من نفايات السيارات ، ومن الضوضاء المجنونة التى تسحق الأعصاب ، وتصم الأسماع ؟!

ثم العمارات الشاهقة من الأسمنت المسلح التى تقتحم العيون وتقتحمها العيون وتمجها الأذواق !!

وأسفا على مصر !!

أين هذا كله مما نعانيه اليوم من فساد الذوق ، ومن ضراوة بعض الناس فى معاملتهم بعضهم مع بعض !!!

لا ليست هذه هى ثقافة مصر ، ولا حضارتها . كيف خربت مصر هذا التخريب كله ؟! إنها الرقابة ..

بدأ التخريب بقطع الأشجار ، والعدوان على الحدائق ومنعت الرقابة الأقلام من النقد !! ثم بحملة هدم البيوت الجميلة حتى الذى هو أثرى منها يجب أن تحافظ عليه هيئة الآثار !! ومنعت الرقابة النقد !! وبدأت السيارات تنفث السموم القاتلة .. وعمت الضوضاء حتى أصبحت القاهرة من أعلى المدن فى العالم تلوثا بالضوضاء والغازات !! وتغيرت معالم القاهرة .. وتغيرت العلاقات الاجتماعية .. وتغيرت القيم ، انهارت

قيم فاضلة ونشأت قيم فاسدة .. وتغير الذوق العام .. والرقابة مابرحت تمنع النقد ، وكل شئ ينهار انهار الفن .. وانحسرت الثقافة .. كل ذلك والرقابة تمنع الأقلام من النقد ..

حتى إذا أصبحنا فيما نحن فيه .. عدنا نتهامس أين الروح المصرية ؟! أين الذوق المصرى ؟! أين مصر ؟! ثم ألغيت الرقابة على الكلمة المكتوبة وأصبحنا نستطيع أن نصرخ .. هذا حق ولكن الوقت كان قد فات !!

واليوم هناك من يفرض رقابة شرا من كل رقابة سابقة !!

رقابة تقترن بموجات الإرهاب !! تتستر بقناع من الحرص على الدين وتسكت عن كل مايهدم القيم الدينية ، ويغرس الانحلال والفوضى !! يجب أن نحرر حياتنا من هذا القيد الجديد !! ويجب أن نبحث معا عن حل ينقذ حياتنا ويعيد للعمل شرفه ، ويعيد للثقافة جلالها وقدرتها المبدعة ، ويعيد للذوق المصرى صفاءه ونقاءه !!

ولن أمل من الدعوة إلى لقاء كل الذين يعنيهم الأمر مهما تختلف اتجاهاتهم وانتماءاتهم !!

إن جهد الحكومة هو مانراه الآن !! وإذن فلتتلاق الحكومة مع أصحاب الآراء الأخرى .. فما من شئ يمكن أن ينقذ هذا الوطن مثل جدلية الحوار بين كل الآراء إننا لنعانى من مشاكل الاقتصاد والثقافة .. من حاجات الحياة والفكر والفن .

ومامن حل صحيح للفوضى خير مما يمكن أن نتفق عليه معا ..

أيمكن أن يحدث هذا اللقاء ؟! إن الاتفاق على الحل ضرورة حتمية .. والحل خير من القارعة !! أم أنه لابد من قارعة ؟!

أيمكن أن نحقق هذا اللقاء وهذا الاتفاق .. إنه لممكن .. بل هو واجب وطنى ..

١٩٨٤/٢/٨

رأيي صواب يحتمل الخطأ ..!

عجبت للذين يتساءلون عن دوافع الجبهة الوطنية !! أنا أفترض فيهم حسن النية ، ولا أزعم أنهم يشككون في هذه الدوافع ، ولكن ربما خفى عليهم أن الخطر المشترك الذى يهدد الوطن لا يمكن أن نواجهه إلا بكفاح مشترك ، لا بجهود شتى متفرقة .

أم أنهم يتخيلون أن كل الأحزاب والقوى السياسية والاجتماعية والدينية تستطيع منفردة أن تنقذ الوطن ، كل وطريقته ؟!

أو لعلهم يتخيلون أن هذا الخطر وهم من الأوهام ؟!

أما الخطر فواقع وعذابه واقع .. فإن لم نتعاون كلنا على دفعه فليس له دافع ..!

وما ظنهم بالمؤامرات التى تريد أن تمزق الوحدة الوطنية ؟! ماظنهم بالمرتزقة من تجار الدين الذين يختفون تحت راية الإسلام يحاولوا أن يرهبوا الشعب ويفرضوا عليه حكما استبداديا غوغائيا ليتحكموا فى البشر ، وليسود الطغيان والبطش ، بدلا من الحرية والعدل والمساواة وسائر القيم الفاضلة التى جاء بها الإسلام ؟! ما ظنهم فى الذين يريدون أن يجردوا الإسلام من مضمونه الاجتماعى . وهو تحقيق مصالح الأمة ليجعلوه تابوتا من التوابيت الصماء التى تضم أشلاء الحرية والعدالة ، وليجعلوه قانونا للقهر وليجعلوا أنفسهم على رقاب الشعب ؟!

أوصلنا فيها إلى الحل الأمثل ، أم مازال أمامنا نضال شاق ومستمر لنؤكد استقلالنا السياسي والاقتصادى ، ولنحمى ما اخترناه من سياسة عدم الانحياز ؟!

ما رأيهم فى العلاقات المصرية العربية والعلاقات العربية ، أتساعد هذه العلاقات على التطور بشعوبنا وحماية مستقبلها ، أم أنها فى حاجة إلى جهود متصلة لتتحول إلى علائق تخدم مصالح الشعوب العربية وأمنها ، لا أوهام بعض القادة ، وشغفهم بالزعامة ؟!

ثم ما رأيهم فى المشكلة الاقتصادية ؟! أوصلنا إلى حلها ، أم سنترك متاعب الشعب والأمه وأشواقه مجالا للمزايدات ؟!

مارأيهم فى المشكلة الاقتصادية المعقدة ؟!

وما رأيهم فى سياسة التنمية المصرية ؟! وما رأيهم فى الذى تقترحه المؤسسات الاقتصادية العالمية لإنقاذ الاقتصاد المصرى من الدعوة إلى مزيد من التقشف ومشاكل الغلاء والاستخدام والتعليم والثقافة والإسكان والزراعة والصناعة والعلاقات بين الملاك والمستأجرين فى الريف والمدن ، ثم الخدمات والمرافق ، إلى آخر هذه الهموم التى تكاد تطحن المواطن المصرى طحنا ..؟!

ألا يكفى هم واحد من كل هذه الهموم دافعا للقاء فى جبهة وطنية ، تطرح الشقاق والتناحر ، وتفكر فى حل عادل للفوضى ، وفى منهج وبرنامج لمواجهة الأخطار ، والخروج من الاختناق !!؟

أنا أعرف أن الأحزاب والقوى السياسية والاجتماعية فيما بينها تتعارض وتتناقض ..ولكن هذه التناقضات مهما يكن أمرها يجب ألا تصرفنا عن التناقض الأكبر .. والكل يعلم أن أكثر من جبهة أجنبية تحاول أن ترتع فى مصر ، وأن تمتصها وأن تخرب وحدتها وأن تجعل منها لبنان أخرى !!

والـذى يتـابع اهتمـام بعـض الصحف الأجنبية والعربيـة بهـذا القـدر الضئيل من مظـاهر التطرف الـدينى ، ومبالغة هذه الصحف فى وصـف ما يجرى ، يستطيع أن يـدرك خفايا اللعبة ، وأهـدافها ، وضرورة مواجهتها فى صف واحد كالبنيان المرصوص .

إنه ما من تجارة أكثر عائدا على محترفيها من تجارة الدين !! هذا حق .. وليس من المصـادفة أن يكون تجار الدين جميعـا من أصحـاب الملايين !! إن المرتزقة بالدين يقتنون الملايين والأموال تتدفق عليهم ، أما علماء الدين فوا رحمة لهم ! لا يملكون غير الستر ، ولكنهم على الرغم من ذلك يملكون الكلمة المضيئة ، والشرف الرفيع ، وحسن السمعة .. وهذا كله أثمن من كل ملايين المرتزقة !! ومن أجل ذلك تنهال على علمائنا الاتهامات من المرتزقة ..ولكن شعوبنا تستطيع أن تتبين الرشد من الغى ، وتعرف الطيب من الخبيث وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ..

وما أظن أن أحدا فى مصر يمكن أن يرفض الحوار حول الحل العادل لمشاكلنا ، مهما تكن الخلافات !

من أجل ذلك فلن أمل من دعوة كل القوى والأحزاب والشخصيات العامة ، إلى اللقاء والتحاور حول الحل الأفضل مهما يكن الخلاف فى النظر !!

ونحن فى انتظار أن يوجه حزب الوفد الدعوة مشكورا إلى لجنة تحضيرية تضع ميثاق الجبهة الوطنية ودستورها .. وأسلوب عملها ..والمفروض أن تكون قرارات الجبهة ملزمة وإلا فلا جدوى منها ..

وإذن فيجب أن تلتزم السلطة التنفيذية بما تتفق عليه الجبهة .. فما من طريق للخلاص إلا هذا الاتفاق بين ممثلى كافة الأحزاب بما فيها الحزب الحاكم والجبهة تعكس ماهو مشترك بينهم .. ولكن إذا كان لأحد الأحزاب أو الجماعات أو الشخصيات العامة تحفظات ما ، فليبد هذه الشروط والتحفظات فى اللجنة التحضيرية ليمكن الاتفاق على الحد الأدنى من خطة للخلاص ، يلتزمها الجميع .

أما رفض الحوار فهذا ما أنزه عنه كل القوى والشخصيات الوطنية .. وأود أن أؤكد مرة أخرى أن الجبهة الوطنية ليست هى الحكومة الائتلافية بالضرورة فالائتلاف الوزارى أحد صيغ الجبهة ، وليس هو الصيغة الوحيدة .. ولكن يجب أن نمهد الطريق إلى التلاقى المنتج ، ونطهر هذا الطريق من الصخور والأشواك والأوحال !!

ما من أحد يطالب الأحزاب بترك الخلافات والنزول عن مبادئها وآرائها فهذا مستحيل ، ولكن فلنختلف بروح من يبحث عن الحقيقة ومن يريد من الخلاف أن يصل إلى اتفاق ، لا أن يمزق ثياب مخالفيه ، أو يلطخهم ، أو يحدث فى قلوبهم جراحات يصعب علاجها .

فلنختلف وننزه أقلامنا عن القذف والسب والمطاعن الشخصية ، وعن الاختلاف ومحاولات الإرهاب والابتزاز ، لنختلف فى شموخ ذلك السلف المجيد الذى قال قائلهم : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى مخالفى خطأ يحتمل الصواب !

إن هذا الصوت العظيم الذى ورثناه من ماضينا يجب أن يعلمنا أسلوب الخلاف وخلقياته ، وأنا أعرف أنه ما من زعيم حزب يرضى عما تنشره صحيفة حزبه من مطاعن شخصية أو اختلاقات لأن هذا الأسلوب فى التحاور يسئ إلى الحزب نفسه .

ولكن مرة أخرى أرجو أن يكف الزملاء فى الصحف الحزبية وغير الحزبية عما أخذوا فيه من أسلوب غريب على تقاليدنا وآدابنا ، وهو أسلوب يزرى بمصطنعيه أول الأمر وآخر الأمر ..!

أليس من الأكرم لزملائنا الصحفيين أن ينتهوا من هذا الأسلوب من تلقاء أنفسهم بدلا من أن يضطرهم إلى ذلك زعماء الأحزاب أو مجلس نقابة الصحفيين بإجراءات تأديبية .

لقد نصحت لكم أيها الزملاء مرارا ، وقد وضح لكم ما فى طريقتكم فى الحوار من إساءة إلى سمعة صحافتنا ووطننا وإلى أنفسكم .. فهل أنتم تنتهون ؟!

إن ظروف الوطن لم تعد تسمح بالصمت على هذا .. وليس لدى أحد من الوقت أو الأعصاب مايستهلكه ويهدره فى الرد !!

أنتم أبناء هذا الوطن ، وتقدرون الضرورة الوطنية التى تحتم على كل صاحب قلم وعلى كل من يشعر بالمسئولية أن يبحث عما يجمع الشمل لمواجهة مايواجهنا جميعا من أخطار ، وللنهوض بشأن الوطن ، وحماية مصرية ، وللعمل معا نحو مستقبل أفضل .

الكلمة نعمة ، فلا تحولوها إلى لعنة ، فلتكن كلماتكم منارات على طريق كفاح هذا الوطن من أجل حياة كريمة فاضلة حرة ! كفى !!

اطرحوا كل مايثير الضغينة ، وينشر ظلمات البغضاء ، وافتحوا قلوبكم وعقولكم لأنوار الحب والعدل والإخاء !

إنما الأعمال بالنيات .

أن يتمسك الشباب بالدين ، ويلتزموا مكارم الأخلاق التى يحض عليها ، أمر يبشر بالخير ، ويبعث على الطمأنينة .

حتى إن غلوا فى دينهم ، فيجب علينا ألا نضيق بهم ، فهذا الغلو رد فعل حتمي لما ينكرونه من أمور يأباها الدين !.. والمدينون مهما تختلف دياناتهم أصدقاء بعض ، فالدين الحق يعلمهم التسامح ، ويغرس فى أعماقهم ذات الفضائل ، وينشئهم على حب العدل .. والمجتمع الذى يحب شبابه العدل ، ويعملون بما أدبهم به الدين من احترام للعمل ورعاية لحقوق الآخرين وحريتهم ، ومن إيثار للغير ، والتزام الصدق ، والتراحم .. المجتمع الذى يتعود شبابه هذه الفضائل جميعا ، مجتمع لابد أن يزدهر ، ويحقق السعادة لكل من فيه .. ومن هنا تنبع قوته ..

وأهل الذكر مطالبون بأن يوضحوا للشباب حقائق دينهم ، وبعضهم يفعل هذا مشكورا ، من خلال الصحف وأجهزة الإعلام والمساجد والكنائس ، ولكننا نطالب

الدعاة أن يظلوا دعاة ، وألا يتحولوا إلى قضاة ! ..

إن من واجبهم أن يشرحوا للشباب تعاليم دينهم ، وأن يهدوهم إلى الطريق المستقيم ، وأن يدلوهم على السلوك الذى حقق مصلحة الأمة جميعا ..

ولكن ليس من حق أحد من الدعاة أن يدين غيره ، أو يتهمه بالإلحاد أو الكفر أو الزندقة أو المروق إلى آخر هذه الاتهامات الشائنة التى تمثل صورا من الإرهاب يتنزه عنها الدين ، والتى لاتدحض باطلا ، ولاتقيم حقا ..!!

ليس من حق أحد من الدعاة أن يتهم مخالفيه فى الرأى بالخروج على الدين .. فليدلهم على الصواب بالأسلوب الذى فرضته الشرائع للدعاة : الحكمة والموعظة الحسنة فالاتهام سبيل العاجزين لا المستنيرين !.

وهواية الشباب الذين يدفعهم الغلو فى الدين إلى الخطأ .. مسئولية الدعاة جميعاً . إن من واجب الدعاة أن يلقوا الأضواء إلى الحقائق التى قد يطمسها غبار التعصب .. واجبهم استنقاذ المخطئين من العناد واللجاج واستمرار فى الخطأ .. وما من شىء كالإدانة بلا دليل يدفع إلى الإصرار على الأخطاء !!

احترام الشباب واجب حتى فى النية والحرص على الدين ، وهى غير أخطاء أصحاب المصالح من المرتزقة وتجار الدين .. والفرق شاسع بين الأمرين ..

إن الدستور الذى يجب أن يحكم تعاملنا مع الشباب حتى فى أخطائهم هو الحديث الشريف : « إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى » .. فليكن الدعاة إذن هداة لا بغاة !! والهداية خير من الإدانة .!

هموم مدينة :

ألم يعد أحدا بعد قادراً على إنقاذ الإسكندرية مما تعانيه من ضوضاء وتلوث ، وجنون السرعة ، ومن قذارة فى البر والبحر ، وانهيار فى الخدمات جميعا وبصفة خاصة التليفونات والكهرباء والمواصلات والمخابز ؟!!

لقد استجاب المسئولون فى محافظة الاسكندرية مشكورين إلى استغاثات الناس فخصصت أماكن لعبور المشاة على الكورنيش .

ولكن شذوذ السرعة ، وموت ضمائر بعض من يقودون السيارات حول هذه المعابر إلى مصائد تستدرج العابرين لتباغتهم السيارات المسرعة وتدهمهم !!.

وأمام نادى السيارات دهمت سيارة مسرعة حرم طبيب كبير منذ أيام وهى تعبر إلى النادى على الرصيف المقابل ! وفرت السيارة !! وتهديد حياة العابرين مستمر .. والسيارات المسرعة تفر !

وأنا إقترح على المسئولين فى المحافظة أن يخصصوا لهذه المعابر رجال شرطة لهم سلطة ليفرضوا على الشذاذ المسرعين هيبة القانون ..!

فهؤلاء الشذاذ لا يحفلون برجال الشرطة ويكادون يدهمونهم هم أنفسهم وهم يقفون أمام هؤلاء الشذاذ عاجزين حائرين !!

وأظن أن السيارة التى تهدد حياة المواطنين بسرعتها الجنونية أولى بأن يرفعها (الونش) من تلك التى تقف فى مكان غير مسموح لأنها لا تجد مكاناً مسموحاً به تقف فيه !.. فهذا الاضطرار عذر مخفف .. ولكن ما عذر الشذاذ المسرعين الذين يستهترون بحياة الآخرين ويدوسون القانون بسياراتهم الفاخرة !! إن مبلغ المخالفة مهما يكبر لن يؤثر فى هؤلاء الشذاذ الذين يقودون بسرعة جنونية سيارات فاخرة لم يتعبوا فى الحصول عليها ولا يعلم إلا الله من أين حصل على ثمنها الآباء والأمهات !!

إن تربية الذوق العام مسئولية الجميع ، ولكن هيبة القانون هى التى تفرض الذوق !!

وانظر إلى الإنجليز وحسن ذوقهم فى بلادهم إذعانا للقانون ، ثم انفلات أمورهم إذا خرجوا وأمنوا من العقاب !! وكلنا يذكر ما صنعوه فى مبارة كرة القدم الشهيرة فى بلجيكا ، وهو جرم ما كانوا ليجرأوا على اقترافه فى بلادهم خشية العقاب الشديد ..!

أنا إذن أقترح أن تعدل عقوبات مخالفات المرور من السرعة وعدم الوقوف عند الأماكن المحددة لمرور المشاة ، وإطلاق الأبواق التى تصنع حالة من الضوضاء وتدمر الأعصاب والصحة العامة وتهدر طاقة الإنتاج .. أقترح تعديل العقوبات عن هذه الجرائم ، وتعديل وضعها ، لتكو العقوبة هى الحبس الرادع مع الغرامة الفادحة ، ثم الحرمان من القيادة فى حالة العود .

وأقترح حمل الشذاذ من هواة السرعة على التأنى الجبرى بوضع عوائق على طريق الجيش (الكورنيش) وقد نجحت التجربة نجاحا كبيراً فى المعمورة ، فأمن الناس إلى حد كبير .

ثم أقترح على المسئولين فى محافظة الاسكندرية أن يتجولوا على أقدامهم فى الطرقات الجانبية .. المؤدية من شارع خالد أبن الوليد إلى الكورنيش ، وللنظر كيف سيستطيعون السير فى هذه الطرقات فالأرصفة أصبحت تلالا من المزابل ، أو حفرا غائرة كأنها مصايد !! والطرقات نفسها أصبحت مستنقعات من مياه المجارى .. وأعمدة الكهرباء مكشوفة ، والأسلاك بارزة منها تهدد الصغار والكبار بالصعق .. إن المسئولين فى المحافظة لم يتعظوا بعد من حوادث الصعق التى حدثت فى العام الماضى ، وقبل الماضى على بعض الشواطئ .. ولعله من حسن حظ الناس أن التيار الكهربائى دائم الانقطاع فى الاسكندرية .. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم !!.

إن إنقاذ المدن الكبرى مما هى فيه لا يحتاج إلى أكثر من احترام القانون ، وإشعار المستهترين الهمج من موتى الضمائر بأن هناك دولة !! هى فى الحق أقدم دولة فى العالم !!

ثم .. أصحيح أن مياه الصرف الصحى تلقى فى البحر فى منطقة المصايف على بعد ثلاثة أرباع كيلو متر ؟!

الكل يؤكد هذا ، ولكن العقل لا يمكن أن يقبل أن تصل الاستهانة بالنظافة العامة وبالإنسان إلى هذا المدى !!

المعروف أن الصرف الصحى فى البحار يجب أن يبعد عن الشاطئ بعشرات الأميال .. فكيف نجعله على بعد نصف ميل ؟!

ولكن هذا هو ما حدث فى سيدى بشر حتى أصبح المصطافون فى شواطئ سيدى بشر يسبحون فى مياه البحر مختلطة بمياه المجارى .. ولا أعرف حال الشواطئ الأخرى لعلها كذلك !!

الدولة المتحضرة لا تسمح بأن يحدث هذا للحيوان فكيف تسمح محافظة الإسكندرية بأن يحدث هذا للإنسان !!؟ نريد ردا شافيا من المسئولين فى المحافظة .

أنا لا أعرف السيد محافظ الإسكندرية ، وما من تعليق لى حول ما أثير عن مسائل الصرف الصحى فالأمر أمام القضاء ، ولكن الذى أعرفه هو أن مياه البحر أمام شواطئ سيدى بشر ملوثة منذ اختلطت بمياه المجارى .. وأنا أطالب الصديق الكريم الدكتور محمد صبرى زكى وزير الصحة أن يتحرى الأمر ويحاول علاجه مع زميله وزير الحكم المحلى .. يجب أن تنقذ الإسكندرية من تلوث البر والبحر !!

وواجب محافظ الإسكندرية أن يوضح للناس سبب انهيار المرافق والخدمات فى الإسكندرية وسر الاستهتار بصحة المواطنين وأمنهم ، وراحتهم .. بل وحياتهم أيضا !!

إن هموم الإسكندرية جزء من هموم الوطن ، ولكنها تصدم الناس ولأنهم يأتونها يلتمسون الهدوء والسكينة .. فإذا بالقذارة تحاصرهم فى البر والبحر !! وإذا بإهدار القانون يهدر كل آمالهم فى الهدوء والراحة والسكينة ، بل يهدد حياتهم نفسها !! إن السلطات التى يتمتع بها المحافظ فى محافظته ليست ترفا ومظهرا أو أبهة ، ولكنها تمكين له من الخدمة العامة على خروجه ..

وبقدر ما يتمتع به المحافظ من سلطات واسعة ، يجب أن يتحمل المسئوليات الجسام ..

نحن لا نريد أن نجرح أحدا ، أو نكلفه من أمره ما لايطيق .. ولكن النصيحة واجب وطني وبصفة خاصة عندما يتعلق الأمر بصحة المواطنين ، ومصالحهم وأمنهم وحياتهم ، وبطاقاتهم المنتجة التي تبددها هموم يجب أن يتصدى لعلاجها الجميع متعاونين .

مرة أخرى شكرا لاستجابة محافظة الإسكندرية إذ حددت أماكن على الكورنيش لعبور المشاة ، ولكنها مسئولة عن حماية أرواح العابرين !!

واليقين أنها ستستجيب وستعمل جاهدة لإنقاذ المدينة والعبرة أن تواجه العيب لتعالجه ، لا أن تهمله أو تفر منه أو تغضى عنه !!

إن هناك من الإهمال ما يشبه الاشتراك في الجرم !! أيتصور أحد أن الرغيف البلدي اختفى من سيدي بشر ؟! ثم إنني أدعو السيد المحافظ لقضاء يومين وليلتين على الكورنيش ذي الاتجاه الواحد في سيدي بشر .. وأبشره بأنه لن يستطيع الراحة أو النوم في نهار أو ليل .. والله أعلم بما سيحدث لأعصابه وصحته من تأثير جنون ضوضاء حافلات النقل العام والسيارات المستهترة والجماعات الهمجية التي تصخب وتصرخ بجنون في كل ساعات الليل والنهار ، كأنها تعيش في غابة ؟! أيشعر صانعو هذه الضوضاء بأنهم يعيشون حقا في دولة متحضرة يحكمها قانون ؟! حنانيك أيها المحافظ !! تفقد رعاياك !!

يجب أن تقضي المحافظة على هموم المدينة قبل أن تقضي الهموم على المحافظة وعلى المدينة جميعا .. !!

١٩٨٥/٨/١٠

هذه الكنوز ضائعة ..!

مصر تمتلك كنوزاً عظيمة من الحكمة ، والتراث الحضارى ، والغنى العريض .. فأين ذهبت هذه الكنوز جميعاً ؟! ولماذا أصبحت مصر تعانى من الديون ، ومن تخلف الخدمات ، ومن انحسارها الثقافى ؟!!

أين أموال مصر ؟!

من الحق أن مصر قد بذلت مختارة راضية دفاعاً عن الآخرين .. بذلت من دماء أبنائها ، ومن أموالها ، ما فوق الطاقة لا فى نضالها المستشهد من أجل حق شعب فلسطين فى إقامة دولته الحرة المستقلة على أرض الوطن ، ومن أجل حق الشعب اليمنى فى الحرية ، وبذلت فى سبيل تحرير شعوب عربية وأفريقية أخرى من ربقة الاستعباد وقبضة الاستعمار . بذلت لكى تحقق لهذه الشعوب ما تحلم به من تقدم ..

وهكذا أشاعت مصر العمران ، وأضاءت ما حولها ، وأرسلت العاملين من أبنائها إلى تلك البلاد ، ليُعلِّموا ويعالجوا أهلها ، ويعمروا أرضها ، وليدخلوا كل عناصر الدولة الحديثة فى تلك البلاد .

وتحملت مصر ، نفقات هذا كله .

من الحق أن مصر بذلت كل ما بذلته فى سبيل الآخرين ، راضية مرضية طائعة ، بل بذلت ما بذلته سعيدة بهذا البذل ، تلك السعادة الرفيعة التى يشعر بها الكبار والأقوياء ، حين يجهدون ويعاونون ليأخذوا بأيدى الصغار والضعفاء .

وإن كان بعض المرجفين والذين فى قلوبهم مرض من أهل تلك البلاد الشقيقة ليجحد فضل مصر ، ثم يعيرها بمعاناتها ، وما شقيت إلا ليسعدوا !

إذا كان رأس المال الجاهل المتغطرس يدفع أصحابه إلى الجحود والتهجم على مصر ، والتقحم على شئونها الداخلية . فإنه من يمن الطالع حقاً أن نجد المستنيرين من الأشقاء العرب ، من أهل الحكمة والضمائر الحية ، يرفضون هذا الجحود ، وينكرون هذا التهجم ، ويعترفون بما لمصر من أياد ، ويشكرون ما لها من عوارف ، ويطالبون الجاحدين بأن يردوا لمصر بعض الديون التى فى أعناقهم وأيسر هذا العرفان هو أن يشاركوا فى سداد ديون مصر ، وأن يستثمروا أموالهم فى أرضها ، ليعود هذا الاستثمار عليهم بالربح المشروع وينتج خيراً للجميع ، بدلاً من استثمار هذه الأموال فى المصارف الأوروبية والأمريكية وبدلاً من أن يتقاضى هؤلاء العرب المسلمون عن تلك الأموال فوائد ربوية غير مشروعة ، وبدلاً من أن تتحول تلك الأموال العربية المودعة فى المصارف الصهيونية الكبرى إلى طاقات جديدة من العدوان فى شرايين العسكرية الإسرائيلية !!

شكراً لهؤلاء الأخوة العرب من ذوى الضمائر النقية والقلوب الحية ، ومن أهل الحكمة والإنصاف .

إنهم فى الحق بمواقفهم الشريفة تلك ليغسلون عن بلادهم عار النكران ووصمة الجحود ، وكل ما يلطخ بلادهم به ، رأس المال الجاهل .. وشر ما يمكن أن يبتلى به بلد ما : هو سلطان رأس مال بلا ثقافة ، وبلا قيم حضارية أو خلقية !!

ولكن مصر فى عطائها السخى تنال جزاءها العادل ، حين ترى بعض ما ضحت من أجله يتحقق ، فها هم أولاء الصغار يكبرون !!. وها هو ذا التقدم يتحقق والعمران يشيع والمعارف تضئ هنا وهناك على الأراضى العربية ، التى سفحت مصر الكثير لتصوغ لتلك البلاد الشقيقة من الدم الزكى فجرها الجديد .

إن فيما تحصده مصر من تقدم شقيقاتها لعزاء حقاً .. وإذن فتضحياتها لم تذهب

هباء !! .. إن فيما تلمسه مصر من نتائج تضحياتها . وعن جحود الحمقى ، وحماقة الجاحدين . وكيد الجهلاء وطغيان اللئيم إذا اغتنى !.

ولكن ما بال ميراث مصر من الحكمة والحضارة ؟ .. أين هو ؟!. لم يتبدد هذا التراث العظيم ، وهو ما برح في الأعماق من كل مصرى ، يصوغ له أسلوب حياته ، وموقفه من الناس والأشياء ومعطيات العصر .. ولكن يداً مجهولة غاشمة توشك أن تخنق تلك الأنفاس الطاهرة فى الصدور ..

إن هذا الميراث العظيم قد ظهر فى سلوك المصريين دائماً : فى البذل ، والرغبة الدائمة في العطاء . وفى الإيثار ، والذوق المصفى ، وفى الحرص على تجميل الحياة ، وعلى أن نجعل لها عطراً خاصاً يملأ القلوب بالسعادة ..

لقد كان هذا الميراث العظيم يظهر فيما تقدمه المطابع من ثمرات الفكر ، وفيما تقدمه المسارح ودور السينما من روائع ، وفيما تقدمه الإذاعة من معارف ..

ولم يذهب فى النسيان بعد ذلك الزمن الذى كان فيه الكتاب والفنانون العرب يحرصون على أن تعترف بهم القاهرة ، ليكون لهم وجود فى سائر البلاد العربية ، حتى فى بلادهم !!

ولم يذهب فى النسيان بعد ذلك الزمان الذى كانت الصحف والكتب المصرية ، تصل إلى كل مكان من أرض البشر يوجد فيه من يقرأ اللغة العربية : فيما وراء الأطلنطى من أقصى الغرب ، إلى ما وراء المحيط الهادى فى أقصى الشرق !!

ويوماً بعد يوم بدأ بعض الحاكمين يعامل ناشرى الثقافة كما لو كانوا لصوصاً !! ووضعت القيود الخانقة على تصدير الكتب والمجلات .. عسى أن تكسب مصر بعض الدولارات ، فما كسبنا دولارات ولا سواها ، وكل ما كسبناه ، أننا أهدرنا دور الكتاب المصرى أو أغلقنا أمامه أسواقاً رائجة ، فخسرناها .. وكل ما كسبناه أننا حاصرنا ثقافتنا داخل حدودنا . وقهرناها !!

ثم تغير المجتمع على نحو مخيف : كانت جماهير المسرح والسينما من طلاب المعرفة والمتعة الرفيعة .. وكانت المسارح تقدم أدباً عالياً ومتعة سامية .. ثم ظهرت طوائف جديدة من الأغنياء الجدد .. طوائف تملك المال ، ولا تملك المعرفة ، بل لعلها تكره الثقافة !! طوائف من المصريين والعرب تبحث عن المتاع الرخيص ، فقدمت لها المسارح ودور السينما ما يدغدغ عواطفها الجاهلة ، وما يهدهد غرائزها ، وهكذا انهار المسرح والسينما إلا قليلاً .. وتحولا إلى ما يشبه الملاهى الكبيرة .. !!

أين ميراثنا العظيم من المسرحيات والأفلام السينمائية ؟!

أليس من الواجب أن نعيد تقديم تلك العروض ، وأن نسترد إلى قاعات العرض هؤلاء النظارة ذوى الأذواق الرفيعة الذين أعرضوا عنها ، منذ أصبحت مباءة للبذاءات ومنذ أصبح لجمهورها عادات مزعجة من العربدة ومن الشغب ، والتصايح بالكلمات الهابطة ؟!

أليس من الواجب أن نسترد للمسرح تقاليده ، وأن نعيد رونق تلك الأيام الجميلة الذاهبة ، حين كان للمسرح نبالة وحين كان المشاهدون يأخذون زينتهم عند كل مسرح ويجلسون في إنصات جليل ، ويتابعون العروض فى احترام ؟!! لا تقولوا إنها مسئولية وزارة الثقافة ، ولا تحملوا الرجل الفاضل الدكتور أحمد هيكل ما لا يطيقه جيل من أولى العزم .. إن النهوض بالثقافة وإنقاذها مسئولية الجميع .

ويجب أن يتعاون الجميع لنشجع منتجى الأفلام والمسرحيات على تقديم ما هو رفيع ونافع ، وممتع فى الوقت نفسه .. فلنشجع الناشرين على تقديم الكتب القيمة النافعة ، ولنرفع الحصار الذى خنق الكتاب المصرى ، واعتقل ثقافتنا داخل الحدود ، ثم أهدرها إهداراً . ويجب ألا نعتمد على الدولة وحدها للارتقاء بالنشر .

أما العروض التى تدغدغ حلف أصحاب رأس المال الجاهل ، والتى يبلغ ثمن بطاقة الدخول إليها راتب خريج الجامعة .. أما هذه العروض فلندعها لأصحابها ، ولكن فلنشجع العروض المسرحية والسينمائية التى تحترم العقول والمشاعر والأذواق

والتى تمنح المشاهد ترفيهاً غير مبتذل ، وفناً رفيعاً ، والتى تشكل إضافة ثقافية ، والتى تبعث على التفكير ، وتثير الرغبة البناءة فى التغيير ..

وليس من الضرورى أن تنهض الدولة وحدها بهذا العبء ..

فلنذكر أن القطاع الخاص هو الذى نهض بالسينما والمسرح ، وأن الرأسمالية المستنيرة الواعية أغنت هذا الوطن بمعطيات الصناعة والثقافة أيضاً .. هى التى بنت المسارح وأسست الفرق المسرحية ، وهى التى أقامت المطابع ، ودور الصحف ودور النشر ، وهى التى أنتجت الأفلام الضخمة فى السينما المصرية .

إذا فليتشبه بعض القطاع الخاص فى المسرح المصرى بالسلف العظيم ، فليتذكر فرق جورج أبيض وأولاد عكاشة ويوسف وهبى ، وفاطمة رشدى ، والريحانى ، والكسار .. فليتذكروا أن هذه الفرق قدمت روائع الأدب المسرحي العالمى ، والمصرى ، والممصر ، وأغنت فنون التعبير والتشكيل ، وطورت الموسيقى المصرية .

ولقد كانت المسرحية الواحدة لشكسبير أو لشوقى أو لغيرهما تعرض فى وقت واحد من فرقتين مسرحيتين !!

فأين ذلك الثراء الذى كنا فيه مما انتهينا إليه ؟!

إن قدراتنا الثقافية عظيمة فاستثمروها ولا تبددوها .. ولتتعاون كل الأجهزة والوزارات المختصة مع وزارة الثقافة ولتتعاون سائر القوى المخلصة المحبة للثقافة حتى نظفر بحياة ثقافية ملائمة وصالحة وجديرة بنا ولترفع الهيئات غير المختصة يدها عن الثقافة ، لتشغل بما يعنيها ، وبما تتقنه ، وحسبها هذا .

فلتحاول بعض فرق القطاع الخاص من السلف العظيم ..

فلتجرب ، وستجد رواجاً لا تتوقعه .. إن جماهيرنا تتوق إلى الفن الرفيع .. فليحاول كل منا أن يوقد مصباحاً ، بدلاً من أن يطفىء الشموع جميعاً ،ثم يلعن الظلام ..!!

فلينهض التليفزيون بدوره الثقافي ، فهو أخطر أجهزة النشر ، وفي مقدوره أن يرتفع بالذوق العام ، أو أن يهبط به ..

إن الأعمال الرفيعة التي قدمها التليفزيون قد نالت نجاحاً واسعاً .. فليشجعه هذا على المزيد .. وما ننتظره منه كثيرا وله في شقيقته الكبرى الإذاعة أسوة حسنة ..

فليكن النهوض بالثقافة مسئولية شخصية ينهض بها كل منا . كل بقدر طاقته .

فلا أمل في وفرة الإنتاج ، وتحقيق عدالة التوزيع إلا إن ارتفعنا بالذوق العام ، وهذبنا الضمير العام ، وهذه هي مسئولية الثقافة بكل أدواتها ومعطياتها .

أين أموال مصر ؟

ويبقى السؤال . أين ضاعت كنوزنا المادية ؟!

أين أموال مصر ؟!

لقد نشرت إحدى الصحف الأجنبية الكبرى أن في مصارف أوروبا وأمريكا أموالاً مصرية مهربة تبلغ نحو مائة وعشرين مليار دولار !!

أصحيح هذا ؟! .. كيف هربت هذه الأموال ؟! ومن هم أصحابها ؟! .. نريد جواباً شافياً من أهل الاختصاص ..

ولقد نشرت تلك الصحف نفسها أن في مصر آلافاً من أصحاب المليارات ، ونحو ربع مليون من أصحاب الملايين ؟! .. وهذا شيء عجيب .. أحق هذا ؟!

فإن صح هذا ، فكم يؤدي هؤلاء للدولة من ضرائب ؟!

نريد بياناً يشفي الصدور .. فأغلب الظن أن أكثر الذين يؤدون الضرائب في مصر ، هم أفقر أهلها ، هم الموظفون وأصحاب الدخول الثابتة ، والأمناء من أهل المهن والحرف وقليل ما هم ..!!

أما الذين ابتلعوا ثروات مصر ، فأكثرهم يتهربون من الضرائب !!

ثم ..

أحق أن بعض الذين فصلهم عبد الناصر أو أبعدهم من بعض الأجهزة قد أصبحوا الآن من أصحاب الملايين وبعضهم من أصحاب المليارات ؟! أصحيح أن من فيهم من الضباط الأحرار أو الذين كانوا أحراراً قد أصبحوا يملكون شركات ملاحة لها عدة سفن وشركات إنتاج فيديو وشركات أخرى تقدر بملايين الدولارات .

انشروا الحقائق على الشعب .. وانظروا كم حصلتم من هؤلاء ؟! .. [ثم ما جدوى قانون الكسب غير المشروع ومن أين لهم ما اقترفوه من أموال ؟!] .

لو أن هؤلاء أدوا ما عليهم من ضرائب ، ولو أن الأموال التى نهبت من مصر ردت إليها ، ولو أن أموال تجار المخدرات وتجار العملة صودرت وردت إلى الدولة ، لأمكن تسديد ديون مصر ، ولاستعادت مصر ثراءها الضائع . إن قانون الكسب غير المشروع يجب أن يعدل لينال كل الذين ينهبون ما ليس لهم من ثروات فهذه الثروات ملك للشعب .. فلترد إلى الشعب إذن أمواله المنهوبة منه ، لتيسر بها الحكومة الحياة عليه وتوفر له الخدمات الواجبة ، ولتيسر للشباب تكوين أسر سعيدة ، ولتحل أزمة المساكن، وأزمات التموين ولتصلح المرافق ، ولتوفر للشعب الحياة اللائقة الكريمة ولتنقذ الشرفاء من صدمات الإحباط !!.

إننا ما زلنا نذكر أن أحد الذين نهبوا أموال الشعب قد قتل فى لندن فى ظروف غامضة ووجدوا فى مسكنه مليون جنيه استرلينى !!.. فكم من الملايين نهبها ووضعها فى مصارف أوروبا ؟!

إن الشعب ينتظر إعمال مواد قانون الكسب غير المشروع ، وينتظر تعديل مواد هذا القانون كيلا يفلت لص بما سرق ، وكيلا يطمع أحد فى سرقة أموال الشعب !! فى بلاد كثيرة من العالم المتحضر يقضى بالإعدام أو السجن مدى الحياة ، مع مصادرة الممتلكات على كل من استغل نفوذه لنهب أموال الشعب ، وعلى كل من سرق مالاً عاماً .. فماذا صنعنا باللصوص الكبار ؟! .. ماذا صنعنا بالمجرمين العتاة ؟! إن ديون

مصر وما تحتاجه مصر لكى تحقق الحياة الرغدة لبنيها لا يبلغ نصف ما هربه لصوص الشعب من أموال .. لقد هربوا نحو مائة وعشرين مليار دولار .. يكفى نصفها ليجعل من مصر دولة غنية واسعة الغنى ..!!

ثم إن أصحاب الملايين فى مصر قد بلغوا نحو ربع مليون .. لا بأس بهذا إن أدوا حقوق الوطن عليهم وإن كانوا يستثمرون أموالهم فى الإنتاج .. ولكننا نعرف أن بعضهم ينفق فى الليلة الواحدة أكثر من ألف جنيه على ما يتعاطاه من مخدرات ..!! عدل هذا ؟! إننا لنطالب المختصين فى الدولة أن ينشروا الحقائق كاملة .. نريد أن نعرف مقدار ما يدفعه أصحاب الملايين للضرائب ، وكيف حصلوا على هذه الملايين .. أهى نتيجة عمل مشروع ، أم هى ضربات حظ ، أم هم نشاط محرم أو مشبوه ؟!.. ثم ألهم ملفات فى الضرائب ؟ أليس من الخير لهؤلاء أن يؤدوا ما عليهم من واجبات .. ولئن فعلوا لأغنوا الخزانة ، ولاستطاعت الدولة أن تحقق الإصلاحات المرجوة .. فإن رفضوا ولئن لم ينزل هؤلاء اللصوص من عليائهم ، ليثورن عليهم الذين هم تحت التراب ! .. ليثورن سكان القبور على لصوص القصور .!!

ولئن حدث هذا إنها إذن للآزفة ..!!

فتداركوا الأمر .. أنقذوا أنفسكم والوطن ، قبل أن تقرعكم القارعة ..!!

الكنوز البشرية

وثمة كنوز بشرية أخرى مهدرة ..

ولا أدرى إلام تظل هذه الكنوز مهدرة وأنا أعنى ساعات العمل الضائعة فى زحام المواصلات .. وأعنى الطاقات المستهلكة من الوقود ، ومن قوى البشر ..

وأنا أعرف أن رجال المرور يبذلون جهوداً خارقة تستحق الشكر والتقدير لكى يجعلوا المرور أكثر سيولة والحياة أكثر يسراً ..

ولا ريب أن الأمور تحسنت على نحو لا ينكره إلا الجاحدون ولكن تظل القاهرة بعد

ذلك هى وسائر المدن الكبرى تعانى من خطأ ما يهدر ساعات عمل كثيرة وكثيراً من الوقود ..

وما من أحد ينتظر من رجال المرور أن يجعلوا واحداً منهم على كل سيارة أو دراجة بخارية !!

ويجب أن نعترف أن هناك خطأ ما فينا نحن .. هو أننالا نحترم القانون بالقدر الكافى ولا وقت الآخرين .. فتكون النتيجة هى ضياع وقتنا نحن ! كل يريد أن يسبق أخاه ، والعهد بالذوق المصرى أن كلاً يفسح لأخيه ويقدمه عليه .. والرأى أن الأمر فى حاجة إلى توعية بأنماط مهذبة من السلوك .. وهذا هو دور الأحزاب بلجانها المختلفة وهو دور الجماعات الدينية .. فلو أن لجنة حزبية أو جمعية دينية أو اجتماعية نهضت بالأمر فى كل حى ، لوفرنا للمرور سيولة أكبر ولوفرنا وقت الجميع ولأنقذنا ما نهدره من طاقات مادية وبشرية ، ولأنقذنا أنفسنا من الضوضاء التى تقتل الهمة ، ومن التلوث الذى يهدد الحياة .. وكم من كنوز أخرى مهدرة !! هى هذه الطاقات البشرية التى فرضت عليها بعض القوانين الشاذة أن تعتزل العمل العام .. وأنا أعنى تلك ألقوانين التى تجافى الحياة الديمقراطية ، وتشويهها بلا جدوى أعنى القوانين التى تؤدى إلى العزل السياسى .

إننا بهذه القوانين نهدر طاقات بشرية نحن فى حاجة إليها .. وإذا كان الوطن يعانى منذ حين بعض التمزق ، فالوقت يثبت إلحاح الحاجة إلى التعاون والتضامن الوطنى .. ولن يتحقق هذا التضامن .. ولن نوفر لوطننا الثراء الروحى ، والقدرة على الانطلاق إلى المستقبل الأفضل ، والقدرة على تحدى الخطر والانتصار عليه فى ظل تلك القوانين الشاذة الظالمة ..

كيف يتحقق مانريد من وفرة الإنتاج وشيوع العدالة والطمأنينة ، ونحن نعانى من تلك القوانين الشاذة التى تهدر حقوق الإنسان وتفرض العزل السياسى على عدد من خيرة أبناء مصر وليس الخلاف فى الرأى سبباً صالحاً لتبرير استمرار هذا العزل ..

فخلاف الرأى عنصر جوهرى من عناصر الديمقراطية .. ومن خلال تحاور الآراء المختلفة يمكن الوصول إلى الرأى الأصوب .

ولست أدرى ما الذى يقعد نواب الحزب الوطنى عن التقدم من فورهم هذا بمشروعات قوانين تلغى كل تلك القوانين الشاذة والتى تهدد كل مصرى فى حريته والتى تناقض روح العصر والانطلاقه ؟

ما صمت الحكومة على هذه القوانين ؟! قوانين كالتماثيل التى كان ينحتها الأولون فى عصور الجهالة لكى يخروا لها ساجدين !! ما هذه القوانين ؟! ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟! يا نواب الحزب الوطنى الحاكم .. لكم ناشدتكم أن تلغوا هذه القوانين حماية لحريات المواطنين ، ولحرياتكم أنتم أنفسكم !! ما صمتكم ؟! إنكم لتعرفون أن هذه القوانين عدوان على حقوق الإنسان ، وتهديد دائم للجميع وتشويه لوجه مصر المضىء .. إن استمرار هذه القوانين استمرار للعدوان على الدستور .. واستمرار لامتهان العقل المصرى أتحبون يانواب الحزب الحاكم أن تتحملوا أمام التاريخ مسئولية استمرار هذه الوصمة .. ما ضركم من المعزولين سياسياً ؟! ما ضر الوطن أن رفع عنهم هذا الظلم الذى هو إهانة لنا جميعاً ؟! ما ضر الوطن إن عادوا إلى نشاطهم، وإن حررنا الإرادة المصرية والكرامة المصرية من وصمة تلك القوانين ؟!

أيجب أن نعاود استصراخكم فى كل نهار وليل ؟!

بادروا أنتم .. فليكن لكم شرف تحرير الوطن ، وتحرير المواطن من وطأة هذه القوانين الشاذة .. فلا أمن لأحد ما بقيت هذه القوانين مسلطة على الجميع !!

اظفروا بشرف إلغائها ، فإن أبيتم هذا الشرف ، فلا تتحملوا عار الدفاع عنها ، أو الوقوف ضد إلغائها ، وأخرجوا ما قدمته المعارضة من مشروعات لإلغاء هذه القوانين ، وأجيزوها بلا إبطاء ..

إذا كنا فى حاجة إلى جبهة وطنية صلبة متماسكة ، وإذا كان خلاص الوطن هو فى تآلف كل قواه فى مثل هذه الجبهة ، فكيف نحرم الجبهة الوطنية من مواطنين شرفاء

مستعدين للكفاح دفاعاً عن وحدة الوطن ، واستقلال إرادته ورفاهية بنيه ؟!

إن العزل السياسي عدوان مستمر على الدستور ، وعلى مبادىء العدالة ، وحرمان للوطن من جهود هو في حاجة إليها ، وهو إهانة شخصية لكل منا ، فلا نامت العيون ، وقى مصر من يعاني مرارة الإحساس بالظلم !! ولا اطمأنت القلوب ، وهذا العزل السياسي قائم يهدد الجميع ، ويمتهن الجميع ، ويمزق وحدة الوطن ! لا تهدروا هذه الكنوز البشرية

١٩٨٦/١/١٥

تنويعات

ما من شيء أحب إلى من الالتقاء بالقراء الأعزاء ، وما من شيء أقسى على من الانقطاع عنهم .. ذلك أننى منذ اخترت الكلمة أداة للتعبير أعيش لأكتب ، وما أنا من هؤلاء الذين يكتبون ليعيشوا ..!

من أجل ذلك فقد عانيت أهوالاً من ألوان العذاب ، فى أيام منعى من الكتابة ، أو امتناعى - مرغماً - عن الكتابة .. ! وقد منعت من الكتابة أكثر من مرة ، فى السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة ، كان آخرها عندما كتبت سنة ١٩٦٠ أن المزيفين وأعداء الاشتراكية يتولون كثيراً من المناصب الخطيرة الموجهة باسم الاشتراكية ، ويخربون الضمائر ويبددون ميراثنا الحضارى وثرواتنا باسم الاشتراكية ويقترفون كل الأخطاء والخطايا تحت شعار الاشتراكية ، بينما الاشتراكيون الحقيقيون يقطعون الصخر فى الجبل ، ويسقطون فى ظلمات السجون أو فى هجير الصحارى ، وهم يحلمون بالزمن السعيد ويصوغون بخيوط الدم فجر الغد الجديد .. !!

وعندما عدت إلى الكتابة فى الصحف بعد المنع الطويل ، لم أتوقف عن الكتابة قط إلا فى الأشهر الأخيرة .

وبالله ، ما كان أشقها على النفس ، وأثقلها على القلب .. !! ولا أحد يعرف لماذا توقفت عن الكتابة .

ولكنى توقفت فى ظروف متوترة كانت قد شحذت رغبتى فى التعبير ، واستفزت

روح النضال والتحدى فى الأعماق منى ، وأنا أدعو إلى الجبهة الوطنية ، واستصرخ الملوك والرؤساء العرب إلى التضامن ، وأهيب بالقوى المحبة للحق والحرية فى سائر أقطار الوطن العربى إلى تكوين جبهة واسعة صلبة تستطيع أن تقتحم الغمرات لتحقق الأهداف القومية المشتركية لهذه الأمة ، التى كانت ذات يوم خير أمة أخرجت للناس .. ووارحمتا لها الآن !.

وكانت هذه الدعوات جميعاً تلقى استجابات سريعة وعميقة من داخل الوطن وخارجه .. ولقد أذكر - والذكرى تنفع المؤمنين - أن أحد أمراء العرب قرأ مقالاً لى أعاتب فيه قادة البلاد العربية ، وأذكرهم بأيادى مصر وأفضالها وبذلها وتضحياتها فى سبيل العرب ، فحدثنى الأمير العربى ذو الثقافة الواسعة العميقة والعقل الراجح ، قال عبر الهاتف : إن لمصر عوارف لا ينساها إلا جاحد ، ومهما يفعل لها العرب فلن يردوا بعض جميلها وأنت لم تذكر كل ما قدمته مصر للعرب لقد نسيت الكثير من أياديها خوف الاتهام بالمن ، ولكننا لن ننسى إن مصر هى التى علمتنا وهى التى أسست فى بلادنا العربية النظم المالية والاقتصادية والهندسية والطبية ، وقدمت لنا كل معطيات المدنية . فبلادنا العربية مدينة لمصر فى كل ما حققته من تقدم ، أما مصر فهى ليست مدينة لأحد !

أجل توقفت عن الكتابة منذ أشهر ، وهو أمر لم يحدث لى من قبل قط !.

وتأول بعض الناس فقالوا : « إنه المنع » !، والحق أقول أننى لم أمنع من الكتابة قط منذ ذلك المقال فى عام ١٩٦٠ عن الاشتراكية وأصحابها وصناع الضلال فيها ..

على أن امتناعى عن الكتابة حرمنى من الدعوة إلى الجبهة الوطنية .. وقد زعم بعض الأصدقاء أنى توقفت عن الدعوة للجبهة الوطنية لأنى وجدت رفضها لها فى بعض دوائر الحزب الوطنى الحاكم .! وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة .. والذين فكروا فى هذا السبب معذورون ، لأنى سكت بغتة وبلا سبب مفهوم !! .. وأود أن أؤكد هنا أن أحداً لم يرفض الجبهة على الإطلاق .. وربما كانت هناك بعض تحفظات من هذه

القيادة أو تلك من قيادات الأحزاب القائمة ، ولكن أحداً لم يرفض المبدأ ، على رغم من الأوحال التى حاول أن يقذفنى بها البعض ! .. رحب الجميع بالتلاقى والتحاور .. وتلاقى الجميع كلما واجهت الأمة ظروفاً صعبة تحتم التشاور وتقتضى الاتفاق على حل فيه الإنقاذ الوطنى على الرغم من شغب السفلة وصراخ بعض الأراذل !.

يبقى بعد ذلك أننى إنما عزفت عن الكتابة لسبب خاص جداً ، وشخصى جداً لايعنى أحداً سواى !! ويصعب على العقل تصديقه .. ذلك أن الله أنعم على دون كل الكتاب – فى كل زمان ومكان ببعض الأحباء الأعزاء الذين تطير أنفسهم شعاعاً كلما اقتحمت غمرة من غمرات التعبير ، وهم يحسبون أننى يجب أن انتبذ مكاناً قصياً ، وأننى يجب أن أسير فى طرقات الحياة متحرزاً من الغبار .. هؤلاء الأحباء يعذبهم ما يملأ القلب منى بالمسرة فما من شىء تشرق به النفس ، ويخفق له القلب منى بغتة ، مثل خوض معارك الرأى مثل الصياح دفاعاً عن كل ما أؤمن به ، مهما يكن ما ألقاه .. ولكن الأحباء يتعذبون مما أسعد به !! . ويتحول عذابهم هذا الغريب إلى تعذيب لى !! وهكذا وجدت نفسى أعذب من أحبهم ، ويعذبنى من يحبوننى بقدر هذا الحب !! وهو بلاء لم يعرفه كاتب من قبلى قط ، وأرجو ألا يعرفه من بعدى أحد .. ! ولكنه بلاء فى الحق عظيم ! .

وهكذا أصبحت كلما أمسكت بالقلم لأكتب أجد نفسى مقبلاً على جريمتين غليظتين : جريمة تعذيب بعض من أحب ، وجريمة تعذيب النفس : ويوماً بعد يوم تحولت هذه الآلام النفسية إلى آلام جسدية هائلة ! فأصبحت يدى لا تقوى على حمل القلم ! ، وأصبحت كلما أمسكت بالقلم لأكتب كلمة دهمتنى آلام جسام لا يطيقها بشر ، وكأنها عذاب الحريق !!

والتمست الطب ليدى هنا وهناك فما انتفعت بعلاج وما أجدانى طب !! ولم ينقذنى من هذا كله إلا ثقة القراء ، وأسئلتهم المتلاحقة : « متى تعود إلى الكتابة » لقد طال انتظارنا لخواطر حرة ؟ ليس من حقك أن تنقطع عن الكتابة ! إننا نعبر عن أنفسنا من خلالك فكيف تسكت ؟!

ويوماً بعد يوم شعرت بفداحة المسئولية أمام القراء وأمام القضايا الملحة !

وإذا كنت انتمى إلى الذين يمكن أن يستشهدوا دفاعاً عن الحق والحرية والخير والإخاء ، وكل ما أؤمن به ، وأناضل من أجله ، وإذا كنت أصاول الباطل بروح الشهيد وبإرادة الذى يحرص على انتصار الحق أضعاف ما يحرص على حياة فما بالى إذن لأتحمل الآلام مهما تكن جسامتها وغلظتها ، فى سبيل التعبير بالكلمة عما أعيش من أجل تحقيقه : حرية الإنسان ، وأن يصبح الإنسان بحق أخاً للإنسان ، وانتصار العدل !؟

ويوماً بعد يوم ترسخ فى أغوار نفسى أن المسئولية أمام القراء والضمير العام تستحق تحمل الآلام ، من أجل النهوض بها على أكمل وجه ، وأنا أحد الذين يفرضون على أنفسهم إذا عملوا عملاً أن يتقنوه ، مستهدياً بالحديث الشريف « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

ولكيلا أخوض تجربة العذاب والتعذيب مرة أخرى ، فأنا أرجو هذا الصنف من المحبين ألا ينظروا فيما أكتب لكى يستريحوا ويريحوا ! وحتى لا تزل قدم بعد ثبوتها أدعوهم إلى عدم قراءة عربدة السفلة على .

وبعد فليست هذه هموماً شخصية لأنه ليس من حق الكاتب أن يأتى من الأمور ما يحير الناس ، ولا أن يترك الناس فى حيرة ولا أن يتوقف عن الكتابة دون أن يشرح للذين يعلقون الآمال على كتاباته .

وها أنذا أعود إلى كتابة خواطر حرة سائلا الله أن يهبنى القوة والحكمة والصبر لأداء ما تفرضه على مسئولية الكلمة من نضال واقتحام وصيال واحتمال !

ومن عجب أنه فى فترة عزوفى عن الكتابة انطلق بعض الذين مردوا على الكذب والمرجفون فى المدينة والذين فى قلوبهم مرض .. انطلقوا يتخرصون وينشرون الأقاويل عنى !! انطلقوا جميعاً يشيعون عنى أنى تخليت عن مسئوليتى إيثاراً للعافية وقد علم الله والناس أنى ما تخليت ، وما كنت لأتخلى ، ولكن من الحب ما قتل ، فهذا قدرى : ما خضت معركة قط إلا وجدت قيوداً من حرير تطوقنى بأقسى من الحديد وتكاد

تخنقنى !! وهى قيود صنعها بعض المحبين ممن ألفوا الهلع كلما وجدونى فى معركة ، أو ألفونى ماشياً على شوك الطريق .. وما طريقنا نحن المعبرين بالكلمة فى معركة الحق والباطل إلا صخور وأشواك وفخاخ !! ولكننا نقتحم الخطر فى سعادة وعزاؤنا راحة الضمير ، وانتصار ما نناضل من أجله ، أو الأمل فى انتصاره ! فهلا انتهى هذا الصنف المعذب من المحبين ، لكيلا يقتل هذا النوع الغريب من الحب رجلاً آخر خلال نومه لإبعاد ذبابة حطت على وجهه ؟!

الشباب ومعرض الكتاب

كثيرون يظلمون شبابنا ويتهمونهم بالسطحية وبأنهم يبحثون عن الملذات السهلة.

وقد أتيح لى أن أرى معرض الكتاب أكثر من مرة هذا العام .. فوجدت عجباً !!

أكثر رواد المعرض من الشباب ، ولقد خيل إلى أن هذا العدد الهائل من الشباب زوار المعرض يفوق مشاهدى بعض مباريات كرة القدم أضعافاً مضاعفة .. ولكم تمنينا أن تحظى القراءة عندنا بمثل حظ كرة القدم !!

وقد تابعت ما يسترعى انتباه شبابنا من الكتب ، فوجدت أن الكتب ذات القيمة الثقافية العالية هى التى تجذب انتباههم .. وإذا قارنا بين ثمن الكتاب ودخل الشاب فسنجد أن الكتب التى استوقفت الشباب ذات ثمن أكثر مما يطيقه الشباب .. وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا يتزاحمون ليشتروا الكتب ! وكان من الملحوظ أن فى هذا تضحية جسيمة .. ولكنها كانت فرصة اغتنموها فالكتب فى المعرض تباع بأسعار مخفضة .. وفى لقاءات الكتاب بالقراء كانت التخفيضات تصل إلى نحو نصف الثمن .. ولا ريب أن اهتمام شبابنا بالقراءة على النحو الذى دل عليه اقبالهم على معرض الكتاب .. ولا ريب أن هذا كله يملأ النفس بالأمل فى مستقبل الثقافة وفى أن الأيام القادمة ستكون أجمل من كل ما مر بنا ذلك أننا إذا كنا فى حاجة إلى زيادة الإنتاج فى كل ميادين العمل لنتحرر من الضغوط الاقتصادية ولنحقق للمواطنين الوفرة والكفاية والعدل ، ولنضع الوطن على طريق الانطلاق إلى آفاق التقدم .. إذا كنا فى

حاجة إلى زيادة الإنتاج فيجب أن نعرف أن الإنسان هو سيد الإنتاج ومحرك أدوات الإنتاج ، وصانع علاقاته العادلة المؤثرة ، ولن تتحقق لنا الوفرة أو الكفاية إلا إذا كان الإنسان المنتج إنساناً مثقفاً حقاً .. ومن الواضح أن للإنسان المنتج تصورات أخرى وطموحاً ، وقدرات عظيمة تفجرها الثقافة .. وله بعد خيال واسع خصب هو من ضرورات التقدم .

وإذا كان الكتاب هو أهم أدوات الثقافة ، فينبغي لنا أن نشجع القراءة ، وأن نغرس في نفوس الصغار حب القراءة ، وأن نجعل القراءة من عادات حياتهم اليومية .. ولن يتأتى لنا هذا إلا إذا محونا الأمية .. فما زالت الأمية عارنا !! يجب أن نمحو هذا العار .. ما زالت الأمية قيداً ووقراً يعوق انطلاقنا وقد جاء زمن التحرير ! ومحو الأمية ينبغي أن يكون هدفاً قوميا ويجب أن توضع له البرامج ، وتشدد الرقابة على تنفيذ هذه البرامج .. وينبغي أن يخصص لها جهاز خاص تابع لمجلس الوزراء أو لرياسة الجمهورية بحيث يستطيع أن يمسك خيوط الحل المتناثرة في مختلف الوزارات .. لقد سبقتنا كل البلاد المتقدمة إلى محو الأمية .. والإنسانية تستفيد من تبادل التجارب والخبرات بلا مراء .

ونحن مطالبون بأن ندرس هذه التجارب ، وبأن ننقل منها ما يفيدنا وما يوافقنا فلنضف إليها إن وجدناها عاجزة عن مواجهة الأمية عندنا .. وما يليق أن يكون شعب أول دولة في التاريخ وصانعة أعظم حضارة على هذا النحو من الأمية ولقد أرى أن الخدمة الجامعية التي فرضت على خريجات الجامعة يمكن أن توجه إلى محو الأمية .. فماذا تصنع الخريجات خلال عام الخدمة الاجتماعية ؟! إنه عام ضائع من العمر فلماذا لا نستفيد منه في محو أمية النساء ؟!

والمجندون من خريجي الجامعات وحملة المؤهلات المتوسطة أيفيد تجنيدهم وطننا في شيء خيراً مما يمكن أن ينتفع به الوطن إن وجهناهم جميعاً لمحو الأمية بين الجنود ؟!.

إن الجندى المتعلم أقدر على استيعاب الأسلحة المتقدمة من الجندى الأمى ، ما فى ذلك شك ..

إنى أناشد السيد نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع المشير عبد الحليم أبو غزالة أن ينظر فى هذا الاقتراح أن يتلقى هؤلاء المجندون دروساً فى أحدث وسائل محو الأمية ، ثم يوجهوا بعد ذلك إلى التطبيق .. إن المواطن الذى يضىء نور العلم عقله وقلبه أجدى على الوطن من هذا الذى تطمس بصيرته ظلمات الأمية ..

أمر آخر ينبغى أن ننتبه إليه حين نحاول أن نربى أطفالنا وتلاميذ المدارس على حب القراءة .. يجب أن نقدم إليهم مواد تجذب انتباههم ، وتهذب أذواقهم وتضيف إليهم معارف جديدة وتحبب إليهم القراءة حقاً وتغرس فى أعماقهم حب الثقافة .. ولكن بعض ما تفعله وزارة التعليم منذ حين يجتث من أعماق التلاميذ كل بذرة طيبة .. فهى تقدم لهم نماذج من تأليف كبار موظفيها .. ولا بأس بهذا إن كانت هذه النماذج على المستوى اللائق فنياً وجمالياً وثقافياً .. لكننا نجد بعض هذه النماذج مع الأسف قليلة الجدوى ، سواء منها التى ألفها كبار الموظفين أو التى اختاروها !!

فالشعر كلام منظوم بلا روح ، وبعضه سقيم ! وكذلك نماذج النثر .. قد يفلت من هذا نص هنا ونص هناك ولكن هذا محض استثناء .. أما القاعدة فهى النماذج التى تصد التلاميذ عن الثقافة ، وتنفرهم من اللغة العربية ! وهذه محنة !.

بالإضافة إلى ذلك فإن ما كتب عن الأدب الحديث ليدرسه التلاميذ ملىء بالزيف ، أملته روح التعصب الأعمى وتصفيه الحسابات بين بعض المشتغلين بالنقد وبعض أدبائنا !!

كفى تدميراً لعقول التلاميذ وإفساداً لأذواقهم !!

كفى تزييفاً لتاريخنا السياسى والأدبى !! كفى خضوعاً للأهواء الضارة والمصالح الفاسدة والتكتلات المدمرة !!.

فلتراجع كل الكتب التى تصوغ ثقافة التلاميذ فى بلادنا ..

ولقد أرى أن تعاوناً وثيقاً بين وزارة التعليم ووزارة الثقافة واتحاد الكتاب يمكن أن ينقذ تلاميذ المدارس من غاشية ما قرر عليهم !!

اطرحوا هذه الكتب ، واشرعوا فى تأليف كتب جديدة صادقة ، ومعبرة عن حقائق حياتنا وتاريخنا الأدبى والسياسى شاملة ما يصقل الذوق ويغنى الوجدان وينير العقل ، وتشرق به النفس وتثرى من روائع أدبنا العربى القديم والحديث نثره وشعره بكل فنون التعبير القديمة والمستحدثة من مقال وقصة ومسرحية .

لقد أذكر أننا ونحن فى المدارس الثانوية كانت وزارة المعارف توزع علينا مسرحيات شوقى ، وكتب كبار الأدباء وكنا ندرس مختارات من الشعر العربى وكان كبار الأدباء وأساتذة الأدب العظام هم الذين يكتبون لنا تاريخ الأدب لا كبار الموظفين وأقزام النقاد من أهل التكتلات والتعصب وضيق الأفق والأهواء ومرضى النفوس .. وشتان بين ما كان يكتبه العظام وما يخطه الأقزام !!

ومن حسن الطالع أن الأستاذ الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة أديب كبير وناقد كبير وأحد القلائل الذين عانوا مرارة سيطرة بعض الأباطيل فى الحياة الثقافية .. وقد كان أستاذاً وعميداً لكلية دار العلوم والكلية التى تخرج مدرسى اللغة العربية وآدابها .. وأنا أدعو الحكومة إلى أن تؤلف لجنة برياسته يشترك فيها عدد من أساتذة الجامعات والكتاب وممثلون عن اتحاد الكتاب وكبار الموظفين التربويين المسئولين عن التعليم .. وستكون مهمة هذه اللجنة هى : كتابة تاريخ الأدب الحديث بصدق وموضوعية ، ثم تأليف كتب للنصوص الأدبية من روائع الأدب العربى قديمه وحديثه ، ومن روائع الآداب الأجنبية فى ترجمات دقيقة جميلة والاطلاع على الآداب الأجنبية جزء من برامج التعليم فى كل البلاد المتحضرة لتعريف التلاميذ بآثار الثقافة المعاصرة . وقد رأيت فى كتب تلاميذ المدارس الفرنسية نماذج للكاتب السوفيتى إليا اهرنبرج وبصفة خاصة من روايته المعروفة « سقوط باريس » .

ستكون من مهمات هذه اللجنة أيضاً اختيار كتب القراءة الحرة ، وتقرير بعض الكتب الأدبية ذات المستوى الرفيع .

إن كل يوم يمر على تلاميذنا وهم تحت وطأة المقررات الحالية للغة العربية وآدابها ، إنما يزيدهم نفوراً منها ويقيم بينهم وبين الثقافة والمعرفة سداً .

ثم أعود إلى معرض الكتاب وقد كان فى هذا العام أكثر تقدماً من الأعوام السابقة ولا ريب أن المعرض مدين بنجاحه لهؤلاء الجنود المجهولين من موظفى هيئة الكتاب ووزارة الثقافة .. ونحن إذا أثنينا على المعرض نسيناهم ، فإذا عاب المعرض شيء أو كان لنا نقد ما ذكرناهم !! فمعذرة إلى الله منا .. وتحية لهؤلاء العاملين الجادين على ما بذلوه ..

وتحية للدكتور أحمد هيكل والدكتور سمير سرحان والأستاذ لمعى المطيعى على حسن القيادة .

وإنى لأدعو المهتمين بمشاكل الشباب والذين يتقولون على شبابنا الأقاويل أن يدرسوا ظاهرة إقبال الشباب على المعرض على نحو لم نعرفه من قبل .

ولنعمل جميعاً على تنمية هذا الاتجاه فى شبابنا .

لقد أثبت هذا المعرض بما عرضه وبما قدمه من ندوات وباشتراك الأدباء العرب أن مصر ما زالت هى منارة الثقافة العربية .. وهى الأم الرءوم التى تغفر بعض العقوق ، وهى الحضن الحنون الذى يستدفىء فيه الابن الضال كلما عاد .

إن وزارة الثقافة يقودها مثقف شريف مثل الدكتور أحمد هيكل لحرية بأن تعيد إلى مصر مكانتها فى القيادة وبأن تجعل لها لسان صدق علياً !

أيصدق أحد أن رواد معرض الكتاب هذا العام تجاوزوا فى أكثر الأيام رقم المليون معظمهم من الشباب ؟! أكثر من مليون فى كل يوم ما أعظم دلالة هذا وإذن فلنجعل معرض الكتاب عيداً ثقافياً يلتقى فى أول أيامه الرئيس حسنى مبارك كما عودنا بالمثقفين وليتعرف على مشكلاتهم وليعمل على تقديم أحسن الحلول وأسرع الحلول وليطلعهم على ما يجب أن يعرفوه ..

فلتكن ليالى معرض الكتاب مضيئة بالعمل وبالأمل وبالإخاء وبالعروض الفنية الرائعة التى تقدم مصر من خلالها خير ما عندها من مسرحيات ومعارض وألوان الفنون التعبيرية والتشكيلية ..

فليكن معرض الكتاب فرصة لبشرى وجدان الشباب وللالتقاء بالأخوة المثقفين العرب فى أكرم رحاب مصر المثقفة المتحضرة ذات القلب الكبير !!

١٩٨٧/٢/٤

ذكريات

سمعت اسم طه حسين لأول مرة وأنا صبى فى مدرسة القرية .. كان إخوتى الذين يكبروننى يتلقون تعليمهم فى القاهرة ، ويعودون إلى القرية فى كل صيف ، ومعهم كتب يقضون إجازتهم فى قراءتها .. وكنت قد تعلمت القراءة فى مدرسة القرية واستطعت أن أقرأ عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها .. وعرفت أسماء طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، وأحمد شوقى ، ودكتور محمد حسين هيكل ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وسلامة موسى ، وحافظ إبراهيم ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، ومحمود تيمور ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى .. رحمهم الله جميعاً ..

ولكنى لم أستطع أن أقرأ أكثر من عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها .. ثم تعودت الجلوس مع إخوتى الكبار لأسمع لأحدهم يقرأ من صحيفة يومية أو أسبوعية بينما الآخرون - وأنا منهم - نصغى فى صمت وإعجاب !

ثم تعودت أن أصغى كل أربعاء إلى قراءة حديث الأربعاء الذى كانت تنشره جريدة السياسة .. ومن خلال حديث الأربعاء ظهرت أمامى عوالم سحرية باهرة من حياة الشعراء العرب فى العصور الجميلة الماضية ، واضطرمت نفسى بما فى حياة هؤلاء الشعراء من قدرة على الاقتحام وتحدى الخطر ، وتخايلت أمام عينى رؤى سحرية من عوالم أولئك الرجال ، ومن صخبهم ، وفتوتهم ، ومن عذوبة وروعة ما يعبرون به من كلمات ..

ومن خلال تعودى الاستماع لحديث الأربعاء رسخ فى ذهنى اسم طه حسين ، أكثر من جميع الأسماء الأخرى ، وهزتنى موسيقى تعبيراته .. ثم أحببت القراءة .. وبدأت اعتمد على ارتياد العوالم السحرية خلال الإصغاء .. وأود أن أذكر هنا أن المصادفة هى التى حددت لى يوم الأربعاء ، لألتقى فيه بالقراء على صفحات الأهرام الغراء ولقد كان من بين أول الكتب التى قرأتها ، كتاب اسمه (قادة الفكر) تأليف الدكتور طه حسين .

وعرفت من خلاله عظمة هؤلاء الرواد الأوائل ، الذين عمروا دنياهم بالحكمة ، وتركوا لنا ميراثا ضخما وعظيما من الفكر والغنى الروحى .

ثم قامت القيامة فجأة على طه حسين حين ألف كتابا عن الشعر الجاهلى .. لم يعجب سلطات ذلك الزمان ! ودارت الأيام وحكمت مصر حكومة مستبدة فهاجمها طه حسين ، فلم تغفر له هذا الهجوم .

وفصل طه حسين من كلية الآداب ، بسبب آرائه تلك ، وهو أحد مؤسسى هذا المعهد العظيم !

وأضرب الطلاب احتجاجا على فصل طه حسين ، وتناهى الخبر إلى قريتى وشهدت الكبار فى القرية يسمرون مع أبى فى ليالى الشتاء المشوبة بالحزن والحنين !!.. ما كانت تعنيهم آراء طه حسين فى الشعر الجاهلى وما كانوا يعرفونها ، وربما كان الذين يعرفونها يرفضونها .. ولكنهم جميعا كانوا ينكرون على الحكومة أن تقصى معلماً كبيراً عن دار العلم التى أنشأها ، لا شىء إلا لاختلاف الرأى .. ويالله كم بهرنى اشمئزاز هؤلاء الطيبين الغيورين من أبناء قريتى ، لأن الدولة بكل جبروتها وأسلحتها تشن عدوانا على رجل واحد شريف ، لا يملك إلا قلمه ورأيه وصدقه !!

لقد كان غضبهم غضبا للعدوان على حرية الفكر !

وكان هؤلاء الرجال الطيبون حديثى العهد بثورة ١٩١٩ ، وبالدفاع عن الحرية وعن الدستور والاستقلال والعدل ، وبالمظاهرات الملتهبة ضد الظلم والاستبداد والقهر ..

وهزنى هذا كله إلى الأعماق .. حتى إذا أرسلنى أبى إلى القاهرة لألتحق بالمدرسة الابتدائية وأعيش مع إخوتى ، وجدت اسم طه حسين ملء السمع والبصر !.. كان قد تفرغ للكتابة وحدها ، منذ فصلوه من الجامعة . لقد فصلوا بعده أستاذا عظيما لأنه استنكر عدوان الحكومة المستبدة على حرية الفكر وعلى الدستور ، وعلى حقوق الشعب كله .. فصلوا القانونى العظيم الدكتور أحمد عبد الرازق السنهورى أستاذ القانون المدنى بكلية الحقوق بالجامعة المصرية ، وأحد رواد الأدب القانونى .. واحتج الطلاب وتظاهروا ، ولم تحفل الحكومة المستبدة بهذا كله ، بل انقضت عليهم ، ففصلت بعضهم فصلاً نهائياً ، وفصلت آخرين لمدد محددة . وكان أغلب الثائرين من طلاب الجامعة والمدارس الثانوية والمتوسطة .. ولم تهدأ الثورة على الحكومة المستبدة قط على الرغم من كل شىء !!

ولكن هذا القمع كله لم يستطع أن يعزل الأستاذين العظيمين عن محبيهما .. وإذ بالصحف تصدر ذات صباح مفعم بالآمال مرتعد من برد الشتاء لتبشر القراء باتفاق قاعة إيوارت على أن يقدم فيها الدكتور طه حسين محاضرة أدبية أسبوعية ، وعلى أن يقدم فيها الدكتور السنهورى محاضرات قانونية من حين إلى حين .. وكان الدخول ببطاقات مرتفعة الثمن بالقياس إلى الأزمة الاقتصادية الطاحنة فى تلك الأيام .. وكانت بطاقة الدخول بسعر يتراوح بين خمسة قروش وثلاثة قروش وقوة شراء هذه القروش الثلاثة حينئذ تبلغ مائة ضعف قوة شرائها من أيامنا هذه .. وأخذت أقتصد لأتمكن من شراء بطاقة فى المقاعد الأمامية لأحسن رؤية وسماع طه حسين .. كانت المحاضرة فى السادسة مساء ، فخرجت من منزلى بعد الغداء ووقفت أنتظر أمام قاعة إيوارت فى صف طويل ..

ولقد أذكر أنى حين حصلت على بطاقة فى الصفوف الأمامية شعرت بسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل ! لما حصلت على البطاقة أخذت مبكراً أتجول فى الشوارع المحيطة بقاعة (إيوارت) وأنا أكاد أطير من الفرح !.. كان الطريق من مسكنى ببركة الفيل قرب الحلمية الجديدة إلى قاعة (إيوارت) طويلاً بالقياس إلى تلميذ فى المدرسة

الابتدائيـة .. ولكنى شعرت به قـصيراً رائعاً كحلم سعيد .! وكانت طرقات القاهرة غيـرها فى أيامنا هذه !! كنا نقطع فـيهـا المسافات تحت ظلال الأشجار الوارفـة ، نملأ صدورنا بهواء جميل نقى ، يخفق بعطر اليـاسمين والفل الهندى وروائح الخضرة !.. وكانت الآذان المستريحة لا تلتقط إلا أنغام البيانو فى معزوفات شرقيـة شجية كان أشهرها معزوفة لمؤلف لا أذكره اسمها : « سميحة » .. ومن حين لآخر يتناهى إلى الأذن صوت المذياع رقيقاً حانيا ، بأصوات أم كلثوم ، وعبد الوهاب ، وصالح عبد الحى ، وبتلاوة الشيخ محمد رفعت ، أو بمسامع من مسرحيات بأصوات جورج أبيض ويوسف وهبى .. وكانت الشوارع نظيفة تكاد تلمع ، وكأنها من زجاج ، حتى ليتحرج الماشى أن يلقى فيها بورقة مهملة .!

ظللت أذرع الطرقـات الجميلة حتى جاء الليل ، ودرت فى وسط المدينة أخوض الليل المضىء بالأحلام ، حتى اقتـرب وقت المحاضرة فأتيت قـاعـة إيوارت ودخلت ، وأخذت مقعدى .. الآن أشاهد طه حسين وأسمعه !!

ما أروع هذا كله !!

أول مرة أراه

ودخل إلى المسـرح رجل طويل نحيل مـهـيب ثابت الخطوات ، شـامخ الرأس ، ينعكس الضوء على جبهته السمراء ، كوهج الشمس على خوذات أبطال الأساطير !!.. يا الله أهذا هو طه حسين !!.. ولم تتركه الجماهير يجلس .. فقد استمر دوى التصفيق الهائل وتعالت الهتافات .. هتافات شباب وفى .. كلها تلعن الظلم ، والقهر ، وتدعو بالعمر المديد لطه حسين قاهر الاستبداد .. وأجلسه مرافقه إلى مقعده ، وجلس بجواره .. ولقد ننسى كثيراً من الأشياء ، ولكننى لن أنسى أبداً اختلاجة صوت طه حسين ، أمام هذا الاستقبال الخرافى !! كان فى صوته دفء عجيب آسر .. وكأن كلماته نبضات ! وأحسست به كأنه يستخلص من طوفان دمع حبيس يوشك أن ينفجر !. ولم يعد أحد فى قاعة إيوارت يستطيع أن يحبس الدموع !! وانطلقت الهتافات مرة أخرى ، تدوى

تحية لطه حسين .. أما هو فشرب جرعة ماء .. ثم استرسل ندى الصوت ، رائع العذوبة ، كأنه جدول سحرى !! وملأت كلماته النفس بشعور غريب وهى تتدفق ولكن فى هدوء وثقة فوق كفيه المشتبكتين - وتنسال عبر الآذان ، لتنسكب فى القلوب فتشرق بها الأعماق !! كان لا يزال يعقد يديه كحكماء الزمان القديم .. ويسترسل !! ومنذ تلك الليلة تعودت ألا تفوتنى محاضرة لطه حسين ، ولا كلمة مكتوبة فى صحيفة أو كتاب ولقد أذكر أن أجمل هدية تلقيتها فى حياتى هى كتابه على هامش السيرة حين حصلت على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية !!

حتى إذا حصلت على الثانوية العامة أردت أن أدخل كلية الآداب ، ولكنى صرفت عنها إلى كلية الحقوق .. وخيل إلى أنى لو حرمت من دراسة الآداب ، فسأحرم من الحياة نفسها !.. واتجهت إلى الدكتور طه حسين ، وكان قد أعيد إلى الجامعة بعد أن سقطت حكومة الأقلية المستبدة .. وتقدمت إليه بطلب مكتوب ، بلا وساطة ، ألتمس منه المساعدة لقبولى بالآداب طالباً منتسباً ، أو السماح لى بحضور محاضراته بالقليل !! ولم يكن هو العميد ، وكان العميد هو الدكتور شفيق غربال عميد أساتذة التاريخ الحديث فى تلك الأيام الجميلة ..

وذهبت أسأل عما فعله طه حسين بطلبى فعلمت أنه قد أذن لى فى حضور كل محاضراته فى قسم الليسانس وقسم الدكتوراه ، وأنه ينصحنى بأن أحضر للشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية والأستاذ أحمد أمين أستاذ الأدب العربى .. وعلمت أنه أوصى العميد بى !. وقال محدثى : إن الدكتور طه ينصحك أن تذهب لمقابلة العميد ..

وفى عطف أبوى أخبرنى الدكتور شفيق غربال أنه لا يوجد نظام انتساب فى كلية الآداب ، إذ كان قد ألغى منذ زمن ، ولكنه يستطيع أن يعطينى تصريحا لحضور ما اختار من محاضرات فى أى قسم من الكلية ..

ووضعت لنفسى نظاما اخترت فيه حضور جميع محاضرات طه حسين ، ومحاضرات أخرى للشيخ مصطفى عبد الرازق ، وللأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام وأحمد أمين

وأمين الخولى وعبد الوهاب حمودة من قسم اللغة العربية ، واخترت من قسم اللغة الانجليزية الحضور على أستاذ للشعر ، وأستاذ للدراما ، وأستاذ للنقد ، وكانوا كلهم أساتذة بريطانيين ودروس الدكتور مندور ، وكان يدرس الترجمة لقسم اللغة الإنجليزية فى ذلك الزمان .

خارج الجامعة

وعندما تخرجت فى الجامعة انقطعت صلتى بكلية الآداب ولكن صلتى لم تنقطع بطه حسين .. من الحق أنى لم أكن أقابله ، وما كان يعرفنى ، ولكنى كنت أقرأ له كل ما يكتبه .. ومن عجيب أننى كنت معجبا بكل كتاباته ، ولكنى وجدت نفسى لا أوافقه فى بعض آرائه !! كرأيه فى شوقى .. فلم أكن أرى فى شوقى ما يراه الدكتور طه حسين ولا العقاد ، وإن كنت لشديد الإعجاب بالكتابات الأدبية للثلاثة جميعاً بصرف النظر عن كتاباتهم السياسية .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، فلما وضعت الحرب أوزارها ، قرأت لطه حسين عن شاعر فرنسى من شعراء المقاومة اسمه لوى أراجون .. وفى الحق أننى وأبناء جيلى عرفنا الآداب الأجنبية من خلال هؤلاء الأساتذة : طه حسين ، والعقاد ، والمازنى ، ومحمد عوض محمد ، ود. هيكل ودرينى خشبة .. هم الذين قدموا لنا روائع الفكر والآداب الفرنسية والإنجليزية والألمانية واليونانية . ومضى جيلنا يلتمس روائع هذه الآداب فيما يعرفه من اللغات الأجنبية ..

وكان طه حسين أشد هؤلاء الأساتذة تأثيراً فى توجيهنا إلى معطيات الفكر الإنسانى ، وإلى روائع الأدب العالمى لكثرة ما ترجمه ، وعرضه من الأدب اليونانى والفرنسى .. وبصفة خاصة أدب المسرح ..

فلما قرأت ما كتبه طه حسين عن أراجون ، بحثت عن كتب له ، وكانت روائع الأدب العالمى تصل إلى مصر بعد أيام قلائل من ظهورها فى بلادها ، لا تستغرق

إلا مسافة الطريق !! إلى هذا الحد كانت مصر منفتحة على الثقافة العالمية ، قبل أن يأتى الزمن العجيب الذى يقتصر فيه انفتاح مصر على البضائع الاستهلاكية !!

واستطعت أن أجد فى القاهرة كل ما أصدرته باريس من أشعار أراجون ، فترجمت له قصيدة اسمها « عيون إلزا » ونشرتها فى مجلة رابطة الشباب التى كانت تصدرها الطليعة الوفدية ، وهى الجناح اليسارى فى الوفد .. وكان طه حسين قد خاض فى كتاباته الأدبية غمرات الصراع الاجتماعى ، دفاعا عن عدالة التوزيع وحقوق الفقراء والعمال والفلاحين وسائر الأجراء فى الحصول على حقوقهم وثمرات أعمالهم .. واتهمت الرجعية المصرية طه حسين بأنه شيوعى !

ولكنه سخر بهذا الاتهام وقال أكثر من مرة فى استخفاف بهذه الرجعية : « أنا أياسر إلى أقصى اليسار ! » .

وكان طه حسين قد سافر إلى باريس فور انتهاء الحرب ، وألقى كلمة فى حفل تكريم ضخم أقيم لأراجون ، على الرغم من أنه يعرف أن أراجون عضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الفرنسى ، ورئيس تحرير مجلة الحزب الأدبية وصحيفته المسائية : سى سوار .. وكان طه حسين معروفاً عند المثقفين الفرنسيين ، فقد ترجمت كتبه إلى الفرنسية ورشحه أندريه جيد لجائزة نوبل .

عندما نشرت رابطة الشباب ترجمة لقصيدة أراجون عيون إلزام .. أرسل إلى طه حسين تحية طيبة شجعتنى على ترجمة قصائد أخرى ؛ وعلى كتابة دراسة طويلة عن أراجون ، فيها مختارات من شعره فى المقاومة ومن شعره الأول فى عهده السوريالى ، ومن غزلياته ..

وأغلقت مجلة رابطة الشباب .. وانقطعت صلتى بطه حسين .. ثم عين فى وزارة الأغلبية الوفدية وزيراً للمعارف (والمعارف تقابل حالياً وزارات التعليم والثقافة والإعلام) .

وكنت قد عينت مفتشا للتحقيقات بوزارة المعارف هذه ، فأرسلت إلى الوزير

أطلب منه إجازة بمرتب لمدة عام أقضيه في باريس ، لأغرف من ثقافتها .. ووافق الوزير من فوره .. ومرة أخرى يحيلنى د. طه حسين إلى د. شفيق غربال ، الذى كان قد أصبح وكيلاً للوزارة ، وساعده الأيمن .. ويسر لى د. شفيق غربال ، كل ما استلزمه تنفيذ قرار الوزير من إجراءات كانت معقدة جداً ..

ولما عدت من باريس أرسلت إلى أستاذنا الدكتور طه حسين أشكره ، وتلقيت منه رداً رقيقاً ، ومن أسف أنه ضاع منى فقد صودر فى بعض حملات التفتيش ، ضمن ما انتزع منى من كتاباتى ، وأوراق عزيزة على !!

ولم أكد أعود إلى عملى حتى شعرت بالحاجة إلى قضاء سنة أخرى فى باريس كانت باريس إذ ذاك مدينة الأساتذة العظام فى المسرح والفنون التشكيلية ، والآداب ، والعلوم ، والسياسة والفكر ، مدينة لوى جوفسيه ، وجان لوى بارو ، وبيكاسو ، وأندريه جيد ، وبول كلوديل ، وأراجون ، وإيلوار ، وجانى آنوى ، وفرنسوا موررياك ، وجوليوكورى ، وموريس توريز ، وتيفيفر وكامى وسارتر . وكان نهارها يضطرب بتظاهرات ضد سياسة حافة الهاوية ، وضد قوى الاستغلال والاستعمار ، وكانت لياليها تضىء بنور الفكر وبوهج الصدق الفنى ..

وتقدمت إلى طه حسين وزير المعارف أطلب منه أن يمنحنى إجازة بمرتب ، لمدة عام آخر أقضيه فى باريس ، ولهو يوشك أن يوافق إذ بالأحداث تسير على غير ما نهوى !! فيشب حريق القاهرة الذى احترقت فيه قلوبنا قبل المبانى والمنشآت !

.. ثم تقال وزارة مصطفى النحاس زعيم الأغلبية الشعبية ، بعد قهرها على فرض الأحكام العرفية !. وتصطلى البلاد والآمال والأحلام بنيران الحقد الملكى والبريطانى ! وما تعود تسمع فى القاهرة الموجعة إلا الأنين ، وإلا صلصلة القيد ! ويسود الظلام الداجى ليل القاهرة البديع !!

بعد الثورة

ثم تنفجر ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، وأتحمس للثورة كغيرى من المناضلين الشباب ..

ولكنى آنس من الثورة جنوحا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وإلى إيماءات تلمع غريبة !! وهذا كله غير ما حلمنا به ونحن فى أغلال القهر الملكى البريطانى نطرز بخيوط الآلام فجر المستقبل !

ويدلى طه حسين بحديث إلى إحدى المجلات الأسبوعية يمتدح فيه بعض المشروعات الثقافية التى كنت أراها غطاء لأهداف سياسية استعمارية !! وأرد على هذا الحديث بمقال فى جريدة المصرى ، أعظم صحيفة يومية عرفها تاريخ الصحافة المصرية ، وأعمق صحيفة أثرت فى منطقتها ، وصاحبة أروع متابعات فى الصحافة على الإطلاق .. كان المقال غاضباً حقاً ، ولكنه رعى لأستاذنا وقاره واحترامه ، ولأنى فى مسكنى بجوار جريدة المصرى ، إذ جاءنى رسول من الأخ العزيز أحمد أبو الفتح يطلب منى سرعة الحضور إلى مكتبه ، لأن أستاذنا الدكتور طه حسين حضر ومعه رد على مقالى ، وهو يريد أن يلقانى فى حجرة رئيس التحرير ..

وطربت لهذه الزيارة ، وأكبرت هذا الموقف من أستاذنا طه حسين .. ولم أكد أخرج من باب مسكنى حتى جاءنى رسول آخر من رئيس التحرير ، جاءنى لاهثا ليحذرنى من الحضور إلى الجريدة لأن البوليس الحربى أقبل بغتة وطوق الجريدة وحاصرها ، وهو يبحث عنى للقبض على !!

واختفيت عن الأنظار وعندما هدأت العاصفة ظهرت ، وأرسل طه حسين إلى يدعونى إلى مقابلته فى مسكنه .. وكان داراً صغيرة أنيقة ذات حديقة بحى الزمالك ، قبل أن يبنى داره المسماة « رامتان » بشارع الهرم ..

ودخلت دار طه حسين كعابد ورع متبتل يدخل إلى محراب .

كنت أدير فى فكرى ما دار بيننا من حوار منذ حين حول الأدب والحياة ..

واستقبلنى طه حسين بترحاب كبير .. وأخذ يمزح ، وكان عذب الدعابة ، خفيف الظل ، على ما فيه من جلال وهيبة ..

قال لى ناصحاً من خلال ابتسامة ساخرة « الحكومة العسكرية حمقاء ، ومن أحمق الحمق أن نتحامق على حمقى ! » .. وأطلق ضحكة مجلجلة ثم أشعل لفافة تبغ ، طبع

عليها اسمه ، وجذب منها نفساً عميقاً ، وقد غاضت ابتسامته ، وصارحنى فى حنان أبوى غريب لم أكن أتوقعه بأنه يخشى على مما عسى أن تصنعه بى العسكرية من بطش ، إن ظللت أتحداها ..! وكان قد علم بأنى منعت من الكتابة ، وأن جريدة المصرى قد قهرت على فصلى ، فرأى من ذلك خيراً لى وإن كرهته ، وقال : عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ..

ولكنه تكرر في حياتى فيما بعد حتى ألفته .. وفى مدى عشرين عاماً فصلت ومنعت من الكتابة أكثر مما عملت ومما سمح لى بالكتابة !!

وعندما استقرت الأمور بعض الشيء وذهبت إلى مؤتمر السلام فى استكهلم ، مررت فى طريق عودتى بباريس .. علمت أن الدكتور طه حسين فى أحد فنادقها فقمت بزيارته .. وزرت أراجون .. ودعانى بلاشير لإلقاء محاضرة .

وأقف بالذكريات عند هذا الحد ، لاكملها يوم الأربعاء القادم إن شاء الله ..

ولكن ما مناسبة هذه الذكريات ؟! ليست للذكريات مناسبات ، ولكن الذى أثارها أننى ألتقيت بالأستاذ الدكتور محمد حسن الزيات .. فتذاكرنا معاً طه حسين ، ودوره ، ورويت له بعض ذكرياتى مع أستاذنا العظيم فطلب منى أن أكتبها .. وها أنذا أكتبها ، وأدعوه إلى أن يضمن كتابه الجديد عن طه حسين ما يراه صالحا منها .. وإلى الأربعاء القادم إن شاء الله .

أمنية من الصعيد

جاءتنى رسائل من بعض عواصم الصعيد ، وبصفة خاصة تلك العواصم التى تضيء بالجامعات .. والرسائل تجمع على المطالبة بحظ الصعيد من معرض الكتاب .. وأنا أضع هذا الطلب أمام الأستاذ الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة ، وأمام الأستاذ الدكتور سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب والأستاذ لمعى المطيعى وأمام سائر دور النشر المصرية ، مؤيداً إقامة معرض للكتاب فى عواصم الصعيد .

ولقد أرى أن قصور الثقافة المنتشرة فى أرجاء الصعيد يمكن أن تعاون فى إقامة هذا المعرض ، أليس الصعيد كما قال أمير الشعراء أحمد شوقى يخاطب النيل : أصل الحضارة فى صعيدك ثابت ؟!

١٩٨٧/٢/١١

بقية ذكريات

أصبح لطه حسين دار خاصة غير بعيدة من شارع الهرم ، وقد اتصلت العلاقة بأستاذنا الدكتور طه حسين ، منذ يوم أن زرته بداره الأنيقة وكانت الدار تحمل طابع البيوت الصغيرة الجميلة في الريف الفرنسي .. وكان كل شيء فيها ينم عن ذوق حسن ، تحف بها حديقة أنيقة تبسط بها الخضرة ..

وكان لطه حسين مقعد خاص ، تعود الجلوس عليه ، وما من مرة زرته فيها إلا قربني إلى مقعده .. وكان جلساؤه حينئذ بعض كبار رجال الثقافة والتعليم ، وأساتذة الجامعات والأدباء . كنت لا أزوره إلا استجابة لطلبه : بعد ارتفاع الضحى ، وفي أول الليل .. بالغدو والآصال ..

وكانت قد دارت بيننا من قبل محاورات على صفحات جريدة المصري التي لم تر العين مثلها .. في هذه المحاورات دعوت إلى أدب للحياة ، يواجه مشاكلها أدب موضوعه الإنسان التواق إلى العدل ، المناضل للظفر بالحرية ، الذي تحركه الأشواق إلى الخير ، والحق ، والجمال .. الإنسان الذي يعمر قلبه حب الآخرين ، والرغبة في إسعادهم ، والذي يتحدى الخطر ، الفقر ، ويقتحم المجهول في جسارة ، ليصوغ له وللناس عالما أفضل ..

وكان طه حسين قد كتب كثيرا عن هذا الإنسان وهمومه .. ولكنه عندما قرأ لي بعض القصص القصيرة ، ورواية لي أسمها « الأرض » ، ثار علي لأني أدرت الحوار باللهجة العامية !.

وعندما وجدنى أصطنع الشعر الحر اتصلت ثورته ، فقد كان يحب على الرغم من ثوريته - التزام تقليد البيان العربى .. ولكن ثورته على ما أكتبه من شعر هدأت عنى بعض الشىء عندما قرأ قصيدة من أب مصرى إلى الرئيس الأمريكى .. وعاتبنى لأنى جعلت اسم روايتى الأرض ، وهو اسم اختاره زولا لإحدى رواياته ..

انتقلت محاوراتنا من فوق صفحات المصرى إلى لقاءاتنا فى داره .. ساعد على ذلك أن جريدة المصرى كانت قد اضطرت - إلى فصلى !. وقد حرمنى هذا من أكبر متعة : أن أخاطب القراء من فوق صفحات جريدة يومية احترمتها وأحببتها أكثر مما أحببت أية صحيفة أخرى .. صحيفة أرست تقاليد نبيلة ورائعة لمهنة التعبير بالكلمة ، فأصبحت مثالا رفيعا لشرف الخصومة ، وخصوبة الحوار ، واحترام حرية الرأى .. فلما علم أستاذنا طه حسين أن قيادة الثورة قهرت جريدة المصرى على فصلى غضب ، وغشيه الحزن لما حدث !!.. ويا له من حزن نبيل ! كان يعرف أن سبب فصلى هو حملاتى المستمرة على الخطط الأمريكية للسيطرة على بلادنا ، متخذة مختلف الأقنعة من ثقافية واجتماعية !.. وكان جنرالات المال فى أمريكا يختفون وراء تمثال الحرية ، ويصنعون بشعوبنا ما يشاءون من فتك ، وسلب ونهب .. كانوا يسعون ليرثوا الإمبراطورية البريطانية والفرنسية !!.. وكأن بلادنا وشعوبنا أشياء تورث .

وكان بعض المثقفين الشرفاء فى بلادنا يفصلون بين السياسة والثقافة ، ويتعاونون مع المشروعات الثقافية الأمريكية .. وفى الطليعة من هؤلاء أستاذنا طه حسين !.. ولقد أذكر أنى كتبت أهاجم نشر رواية أمريكية اسمها « عزيزتى أنطونيا » ، ثم تحديت أصحاب المشروع الثقافى الأمريكى أن يقدموا للقراء فى بلادنا إنتاج هوارد فاست ، وشتاينبك ، وفولكنر ، وآرثر ميللر ، وهيمنجواى ، وغيرهم من الكتاب الأمريكيين الأحرار (وقد تغير بعضهم فيما بعد لأسباب مختلفة !) .. ولقد أذكر أنى اتهمت مختلف المشروعات الثقافية الأمريكية أنها لا تقدم إلى بلادنا إلا ما يخدم أهداف السياسة الأمريكية ، وإلا ما يشيع فيها قيما غريبة عنا ، كى تمهد الأرض المقدمة فى أوطاننا لتقبل وطأة الاستعمار الجديد الزاحف منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على أنقاض الاستعمار القديم المضمحل .

وكـان هذا كله لا يرضى أستـاذنا الدكتـور طه ، فقـد كـان فيـه خلطا بين السياسة والثـقـافـة !.. وكـان يرى فى اتجـاهى الفكرى هذا خطرا على .. فـجنرالات المال فى الولايات المتحدة الأمريكيـة يملكون وسائل وأدوات للدعـاية تستطيع أن تدمغ أطهر النـاس ، إن هو قـاوم الخطط الأمـريكيـة !! وعلى المثـقف أن يوافق على هذه الخطط ويؤيدها جهرة ، أو بالقليل أن يتقبلها فى صمت فإن كان يرفضها فيجب ألا يفتح فاه !!.. وإلا فهو إذن شيوعى ، وهدام ، وملحد أيضا !! وهو عميل للمخابرات السوفيتية وبلا مراء !!

وبهذه الضراوة فى قهر الفكر اتهمت السلطات الأمريكيـة بالشيوعيـة والعمالة السـوفـيتـية عـددا من كبار الأدباء والفنانين ومن رموز الفكر الحر حتى داخل الولايات المتحدة نفسها ومنهم الفنان الشامل (شارلى شابلن) .

وبهذه الشراسة فى قذف الأوحال على شرفاء المعبرين بمختلف أدوات التعبير ، لطخت أمريكا أو حاولت أن تلطخ كل من يحتج على سياستها ، وأهدافها ، وأسلوبها المستفز فى تأييد إسرائيل التى أقامتـها رأس حربة ، على أنقاض حقـوق فلسطين ، وشرعتها إلى قلب العرب جميعا !!..

ولم أكن لأنجو مما تقذفه المخابرات المركزية من أوحال .. فبما أنها لا ترضى عنى ، وبما أننى أتصدى لمخططاتها العدوانية ، فلا بد لها من تشويهى ، واتهامى بأنى عميل للمخابرات السوفيتية !!

ذلك أن السلطات الأمريكية ترى أن المشتغلين بالأمور العامة لا يخرجون عن أحد اثنين . إما صديق ، وإما عدو !! فالصديق هو من يرى فى الحماية الأمريكيـة حصنا ضد الشيوعية ، ومن يحسن الظن بالسياسة الأمريكية لا عن غفلة أو عمالة بل خشية ما كان يسمى حينئذ بالزحف الشيوعى ، وحرصاً على ما يراه تحصيلاً لمصالح الأمة .

أما العدو بالقياس إلى المخابرات المركزية الأمريكية فهو كل من لا يعمل معها .. وهو أيضاً كل من لا يرضى عن المخططات الأمريكية .. فإن رفضها بلا ضوضاء فهو- بالقليل - شيوعى !! وإن هو حذر من خطر هذه المخططات ، فالمخابرات المركزية الأمريكية

لن تعفيه من الاتهام بالعمالة للسوفيت ، وبأنه عضو فى جهاز المخابرات السوفيتية .

وقد كتب طه حسين مقالا عنيفا هاجمنى فيه لأنى أسىء الظن بالمشروعات الثقافية الأمريكية ، وبمن يتعاملون معها .. وتساءل عن سبب إنكار ترجمة رواية عزيزتى أنطونيا قال : وما ضرك من عزيزتى أنطونيا ؟!» .

وفى الحق أنى لم أسىء الظن قط بمن كانوا يتعاملون مع المشروعات الثقافية الأمريكية بل كنت أعتب عليهم أنهم قد أحسنوا الظن بما يجب أن يسيئوا به الظن تحسبا ، وتحرزا ، وتحرجا !! وما كان خلافى معهم ليدفعنى إلى اتهامهم ، أو يدفعهم إلى اتهامى !

ومهما يكن الأمر ، فقد شهدت أسف طه حسين حين اضطرت السلطات جريدة المصرى إلى فصلى .. ولقد ذكرنى بنصيحته السابقة : ألم أقل لك أن من أحمق الحمق أن تتحامق على حمقى .. ؟!.. أنظر ماذا جنيت على نفسك » وامتنع طه حسين بعد ذلك عن الهجوم على ما كنت أمثله من آراء ومواقف ، وكف عن الهجوم عن كل الذين كانوا يطالبون بأدب للحياة ، وفن للحياة ، ويدافعون عما كان يسمى حينئذ : « الأدب الحديث » .

لما انقطع حوار طه حسين معى على صفحات المجلات والجرائد ، واصلناه فى بيت أستاذنا العزيز العظيم ، وحدنا ، أو بحضور آخرين وكان أشد ما يغضبه هو اتخاذى العامية أداة للحوار فى القصص .. قلت له إن استعمالى العامية فى قصص وروايات تعبر عن الواقع المصرى إنما هو أدنى للصدق الفنى ، ثم إنه يساعد على تجسيد الشخصية ، وحسن رسمها ، واستعمال العامية ضرورة فنية قد تلجىء الكاتب .. وقديما لجأ إليها الجاحظ حين أجرى الحوار على ألسنة بعض العامة .. بل إن المتنبى استعمل العامية مرة فى شعره الفحل الجزل فاستعمل « ال » بمعنى الذى وذلك فى قوله : « يا أيها الراكب « أل » تزجى مطيته ، ولكنه رفض كل هذه الحجج جميعا ، وقال لى : « إنك تعتل بما يؤخذ على الجاحظ والمتنبى ! أرأيت أحدا من الكتاب الفرنسيين الذين تحبهم استعمل قط لغة الأرجو (أى العامية الفرنسية) ؟! ولما قلت

له : إن الفرق بين الفرنسية المنطوقة والفرنسية المكتوبة فرق يسير ! أما الأرجو فهى تكاد تكون لغة خاصة يستعملها أحط الناس فى أحط أحياء باريس ، وربما لم تكن مفهومة عند المثقفين هناك .. قال : « إنما قرب الفرق بين الفرنسية المقروءة والمكتوبة تمسك الكتاب الفرنسيين بتقاليد البيان والفصاحة » ..

وطال الحوار ، فلا هو غفر لى موقف كهذا ، ولا أنا استطعت أن أرضيه ، فقد ظللت أكتب الحوار بالعامية ، كلما عبرت عن واقع حياة كل يوم فى القصة القصيرة أو الرواية ..

ولكن أستاذنا طه حسين تقبل أن تكتسب المسرحية الشعر الحر أو المرسل أو ما سمى بالشعر الحديث فقد يكون أطوع للاحتياجات المسرحية ، شريطة أن يتقن الشاعر المسرحى إدارة الحوار ورسم المواقف المسرحية والشخصيات بهذا اللون من الشعر ، ويحتفظ بموسيقى الشعر .. وما كان يعنى التزام القافية بالطبع ، بل النبض الشعرى نفسه : الإيقاع والنغم .

بلاد أنت تعرفها :

فى تلك الأيام أقصت الحكومة كل الإنجليز من أساتذة الجامعات الثلاث القائمة حينئذ (القاهرة والإسكندرية وأسيوط) وجلبت بدلا منهم أساتذة أمريكيين ، وشاع أن من أولئك من يحاولون فرض أنماط الحياة الأمريكية وقيمها على حياتنا الجامعية .. وكان هذا كله صدمة مباغتة هزت الضمائر ، وزلزلت لها النفوس زلزالها ، ولكنها لم تسطع أن تخرج أثقالها ! فقد كانت الرقابة العسكرية عنيفة على كل أدوات التعبير ، ووسائل الاتصال بالجماهير .. وجاءنى مندوب مجلة أسبوعية ليجرى معى حديثا .. وأنا لا أحب الإدلاء بأحاديث ، فالحديث يملكنى بعد أن يصدر وقد يكون فيه خطأ أو حذف يغير المعنى ، ولا سبيل إلى إصلاح ما قد يفسده التحريف حتى لو كان بحسن نية أما ما أكتبه ، فأنا أملكه . ولا يملكنى .. وعلى الرغم من ذلك فقد رحبت بالتحدث إلى تلك المجلة ، فما من سبيل آخر متاح لإبداء آرائى التى يضيق بها الصدر ولا ينطلق القلم أو اللسان منذ فصلت عن المصرى ، ومنعت من الكتابة فى أية صحيفة أخرى ، وحظر على حضور الندوات !!

وفى ذلك الحديث عاتبت أستاذنا طه حسين لصمته عن التسلل الأمريكى الاستعمارى الزاحف بقيم هدامة إلى حياتنا ، وأهبت به أن يهب كما عودنا وعلمنا دفاعا عن حرية التعبير وحرية الفكر فى بلادنا .. ويبدو أن الحديث قد استفز أستاذنا الدكتور طه ، على الرغم من حرصى الشديد على ألا يفهم من الحديث أى تجريح !.. ولكن وكما يحدث دائما فى معظم الأحاديث ، تسقط كلمة أو تضاف كلمة ، فإذا بالمعنى يتغير وإذا بالحرص على مشاعر الأستاذ واصطناع التحشم ، يتحول إلى تهجم !!

وفوجئت بمقال عنيف غاضب ينم عن عمق ما أحس به الأستاذ العزيز على من جراح .. وغشينى من ذلك هم عظيم .. وحاولت أن أرد ولكنى كنت ممنوعا من الكتابة .. ثم إن الحديث أغضب السلطات ، فصدر أمر باعتقالى ، غير أنى استطعت أن أختفى .. وفى تلك السنوات كانت مطاردات السلطة متلاحقة ، بحيث لا تترك لأى معارض أو معترض على خطأ للحكومة ، أية فرصة لالتقاط الأنفاس !! حتى إذا هدأت المطاردة ، كتبت رسالة إلى طه حسين نشرتها مجلة « الغد » الشهرية .. و « الغد » تجربة لم تتكرر بعد ، فقد أصدرها الفنان الكبير حسن فؤاد بالاشتراك مع مجموعة من الكتاب والفنانين والتقدميين الشباب ، وجعلنا شعارها : « الفن للحياة » ووزعت مجلة الغد توزيعا لم نتوقعه .. فنفدت أعدادها فور صدورها .. ومع ذلك فقد خسرت، ولم يسدد التوزيع تكاليف الطباعة !.. ذلك أننا رفضنا نشر إعلانات تخالف منهجنا الفكرى ، ومنعت عنا الإعلانات التى لا حرج من نشرها .. فعجزنا عن سداد إيجار مقر المجلة حتى أوقع علينا مالك المقر حجزا تحفظيا .. ثم إن السلطات ضيقت على المجلة حتى اختنقت !

وغضب بعض المقربين من أستاذنا الدكتور طه من رسالتى تلك .. وأبلغونى أنه ضاق بما كتبت عنه !.. ولم أصدق هذا .. فلما لقيته فى منزله سألته عما أغضبه من رسالتى إليه ، والرسالة كلها تقدير له . وليس فيها إلا عتاب رقيق ، لأنه كتب يسألنى : « أتوجد حرية فى بلاد أنا أعرفها ؟! » .

فما بلاد أنا أعرفها ؟! أليس ذلك إيهاما بأنى أدافع عن البلاد الاشتراكية بالحق وبالباطل ، وهذا ما أنتظره منه ؟! وهو بعد غير ما يعرفه عنى . ولكنه قال باسما إنه لم يغضب من رسالتى إليه ، بل لقد أبدى رضاه عنها .. وسرنى ذلك ، وأذهب عنى الحزن ، ذلك أننى فى كل محاوراتى مع طه حسين ، لم أنس قط أنه الأب الروحى لجيلنا ، وأن الثقافة العربية بأسرها مدينة له وفى الحق أنى كنت وما زلت أرعى لجيل الأساتذة وقارهم ، ولقد تعودت بعد ذلك أن ألتقى بطه حسين فى جمعية الأدباء المصريين التى ألفها الشهيد العظيم يوسف السباعى الذى خلف بفقده فى قلوبنا لوعة لا تنطفىء أبدا ..

وكان طه حسين قد انتخب رئيسا لجمعية الأدباء المصريين وكنت قد انتخبت عضوا فى مجلس الإدارة مع يوسف السباعى (سكرتيرا عاما) وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين فوزى ويحيى حقى وكامل الشناوى وأحمد بهاء الدين ..

وبعد انتخاب طه حسين رئيسا بالإجماع ، وقف يشكر الأدباء ويعاهدهم ، فذكر كلمات جليلة لفيكتور هوجو قالها فى خطبته حين انتخب رئيسا لاتحاد الكتاب الفرنسيين .

وكما تعود الناس من طه حسين ، أجاد ، وأضاءت كلماته أعماق النفوس ، ليشرق فيها الأمل بازدهار الحياة الفكرية ، وبنهضة ثقافية عظيمة قادمة ..

وتعود طه حسين أن يجعل من تعبيره « بلاد أنت تعرفها » موضع دعابة عامة كلما التقينا مع الأدباء .

ورفع عنى المنع من الكتابة .. فلما عدت دارت بينى وبين بعض أفراد جيل الأساتذة محاورات حول الفن للحياة والشعر الحديث ، وكان من أبرز هؤلاء أستاذنا العقاد والزيات .

وقد هاجما هذا الشعار وهذا اللون من الشعر هجوما عنيفا ، واتهماه بالشيوعية ، واتهما كتابة الحوار فى القصص المصرية بالعامية بأنها دعوة للقضاء على العربية :

لغة القرآن الكريم .. وسار وراءهما فى هذا الاتهام بعض زملائنا .. ولكنهم بلغوا آخر الشوط ، وجاوزوا المدى ، فاتهمونا نحن المدافعين عما كان يسمى حينئذ بالأدب الحديث : بأننا نحاول هدم الإسلام لحساب الشيوعية الدولية .

ولم يكن الصمت ممكنا أمام هذه الحملات الظالمة التى خرجت بالحوار إلى مزالق ومطاعن ، وتنكبت التحاور فى الأسس الأدبية والشروط الفنية ، إلى قمع محاولات التجديد التى يحتمها التطور الحضارى ..

وعندما كتبت ردودا على هذه الحملة لم أستطع أن أخفى ما أعانيه من آلام ووصفت الاتهامات الجائرة بأنها مصائد وقذف بالأوحال لا يليق بكاتب ، وطالبت الكتاب بأن يحترموا عملهم الفنى الذى يتركز على الإبداع ، والذى يجب أن يتسم بالعدل والحكمة ، وطالبتهم بأن يفرقوا بين عملهم هذا النبيل ، وبين نصب الفخاخ للآخرين ، أو الإيقاع بهم ، أو دس الحشيش فى جيوب الأبرياء ، على طريقة أكثر رجال الشرطة تخلفا !! ولعلى طالبت الكتاب أصحاب الحملة بأن يرتفعوا إلى مستوى شرف الكلمة ، بدلا من السقوط إلى درك اختلاق التهم لمن يخالفونهم .. فالكتاب يجب ألا يكون أداة فى جهاز مكافحة الشيوعية لحساب المخابرات المركزية الأمريكية !!

وإذا بأستاذنا طه حسين يدعونى للقائه فى منزله ، فلما أتيته عاتبنى على ماكتبت .. وقال إنه مهما تكن الحملة ظالمة ، فما ينبغى أن أرد عليها بمثل عنفها .. واسترسل قائلا : إن العنف لا يحل مشكلة ، ولا يقيم حوارا ، ولا يصلح معوجا ، وإن الخير كل الخير أن يمر الإنسان على ما يوجه إليه من اتهامات مر الكرام ، ألا ترى إلى بعض رجال الأزهر ما زالوا يتهموننى بالإلحاد ، وبالكيد للإسلام ؟! وليت الله يقيض من رجال الأزهر من يخدم الإسلام مثلى ! أرددت أنا على اتهامهم باتهام ، بل مضيت فى طريقى أكتب عن الإسلام ما أحسبه يفيد المسلمين . وأنا أنصح لك ألا تلتفت إلى ما يلقى عليك ، وأن تمضى فى طريقك غير مكترث به ، وهذا أبلغ رد ، وأحرى بأن يكسبك قضاياك .

وعجبت أنا لهذه النصيحة من رجل كان إذا خاصم اشتد وإذا ضرب أوجع فلما عبرت له عما أشعر به أطرق قليلا ، ثم قال إنه الآن يشعر بندم شديد لأنه هاجم المنفلوطى وأحمد شوقى هجوما عنيفا !! لقد كان لكل من الرجلين أيد لا يمكن أن تجحد وكلاهما قد بلغ من الإتقان وصفاء التعبير ما يفخر به البيان العربى .. ثم أضاف أنه ما زال يشعر حتى يومه هذا بالحزن لأنه أوجع الرجلين .

ومن عجب أن وزارة التربية والتعليم ، قررت على تلاميذ المدارس كتابا لطه حسين عنوانه « حافظ وشوقى » يتضمن هذا الهجوم الذى ندم عليه طه حسين .. وكم من الأخطاء فى حق شبابنا يرتكبها المسئولون عن التعليم !! ومازالت كتب تاريخ الأدب الحديث المقررة على تلاميذنا محشوة بالأخطاء والأكاذيب ، وبما أملاه العجز أو الجهل أو الحقد على مؤلفيها !! وما زلنا نحشو عقول تلاميذنا بالترهات ، ونجرعهم كل تلك الأكاذيب !!

وذات يوم من أيام أوائل الصيف قال لى طه حسين أنه ذاهب إلى فرنسا ليقضى الصيف كما تعود ..

فقلت له إنى ذاهب إلى استكهولم فى اجتماع لمجلس السلام العالمى ، وسأزور باريس فى طريق العودة ، إلى الوطن فطلب منى أن آتيه فى الفندق الذى سيقيم به فى باريس .

وبعد صمت قليل قال لى إنه يتمنى أن يلقى أراجون فى باريس ، ويدعو الله ألا يكون الشاعر الفرنسي قد غادر العاصمة إلى أحد المصايف ..

أنا أيضا أتمنى أن أرى أراجون ، فما رأيته من قبل .. وكان للأستاذ الدكتور طه ما تمنى .. فالتقى بأراجون .. ولكن هذه قصة أخرى موعدها الأربعاء القادم إن شاء الله .

١٩٨٧/٢/٢٥

من الذكريات

عدت إلى باريس ، فاتصلت هاتفيا بأستاذنا الدكتور طه حسين فى الفندق الذى تعود الإقامة به ، كلما زار مدينة النور .. حتى إذا كنا من غد ذلك اليوم ، التقينا فى جناحه بذلك الفندق .. وبعد لحظات انطلق ضاحكا ..! ما الذى أضحكه !؟ .. ثم سألنى : « من أى بلاد الله أنت !؟ أجبته « من بلاد أنت تعرفها!.. ولكنه قال لى فى غير ضحك : « لعلك لا تدرى أنهم فى مصر قد أنكروك !» .. ما الحكاية !؟ وعلمت أن بلاشير عميد معهد الدراسات الشرقية كان فى زيارة الدكتور طه بالأمس ، حينما كنت أحدثه هاتفيا ، فلما سمع اسمى ، سأل الدكتور طه عن جنسيتى ، فلما أخبره أنى مصرى عجب وقال : إنه أرسل إلى المستشار الثقافى بالسفارة المصرية يطلب منه دعوتى للقاء بطلبة المعهد العالى للدراسات الشرقية ، ليحاورونى فى رواية لى يدرسونها اسمها الأرض ، فلم يرد عليه المستشار الثقافى .. فأرسل الدعوة إلى وزارة التعليم فى مصر ، وكانت هى الوزارة المختصة بالثقافة – مع التعليم – حينئذ ، فرد وزير التعليم المصرى الدعوة ، وزعم أنه لا يوجد فى مصر كاتب بهذا الاسم !!.. على الرغم من أن وزير التعليم هذا كان قد أصدر قرارا بإحالتى إلى مجلس تأديب ، تمهيدا لفصلى ، برغم أننى انقطعت عن العمل أكثر من خمسة عشر يوما .. وكنت فى الحق قد حصلت على إجازة دراسية للسفر إلى باريس ، وظللت أسعى نحو شهر للحصول على تأشيرة خروج ، ولكن وزير الداخلية رفض .. فاعتبرنى وزير التربية منقطعا عن العمل .. ولما لم يكن لدى وقت للتردد على مجلس التأديب ، ولما كنت أعرف سلفا أن النتيجة هى الفصل ، فقد بادرت بتقديم استقالتى ، وقبلها وزير التربية من فوره ..

لما حكيت لأستاذنا الدكتور طه ما كان من أمر وزير التربية وأمرى ، كف عن الضحك وقال في حزن بالفرنسية ، : « أى بؤس ! » وكان نطقه للفرنسية فى عذوبة نطقه العربى .. ثم علمت من الدكتور طه أن صديقه بلاشير لم يطمئن إلى رد وزير التعليم المصرى ، فأرسل إلى نظرائه فى كل البلاد العربية يدعونى إلى المعهد العالى للدراسات الشرقية التابع للسربون فردوا على العميد بلاشير بأنى كاتب مصرى ، وأن الرواية التى يدرسها لطلابه واسمها « الأرض » رواية مصرية ، وهذا مسجل على غلاف الرواية ، وفى كثير من صفحاتها ، ثم اقترح بعضهم على العميد بلاشير أن يكتب إلى الدكتور طه حسين ، فقد عرفوا من قراءة بعض الصحف المصرية ، أن محاورات حول الأدب قد دارت بين طه حسين وعدد من الأدباء الشبان ، منهم مؤلف تلك الرواية ، وأحسوا أن ذلك الكاتب ربما كان من تلاميذ طه حسين !..

ولم يكد العميد بلاشير يتهيأ للكتابة إلى الأستاذ الدكتور طه حتى علم بأنه فى باريس ، فبادر بزيارته ، وروى له ما كان من أمر الوزير المصرى المسئول عن التعليم والثقافة !!

وأعطانى الدكتور طه رقم هاتف بلاشير وطلب منى أن أكلمه .. وفى الحديث الهاتفى أدركت أن بلاشير فى عجلة من أمر تحديد موعد لى لألتقى فيه مع طلابه الذين يدرسون تلك الرواية .. والتقيت مع بلاشير فى داره ، ثم فى مكتبه بالمعهد ، قبل أن يقدمنى إلى طلابه .

ووجدت فى انتظارى مع بلاشير رجلا متوترا ، واضح التحدى والغباء ، والارتباك .. وعّرفنى به بلاشير .. أنه المستشار الثقافى المصرى !.. فلما أخذ المستشار يتحدث حديثه وشى حديثه بأنه لا علاقه له بالثقافة على الإطلاق ! ثم إذ به يفاجئ بلاشير بسؤال غريب .. كيف يدرس هذه الرواية ، وهى رواية معروفة بأنها شيوعية وكاتبها مشهور بأنه شيوعى .. ثم أضاف – وكان الحديث يدور باللغة العربية : « سيادة الوزير فى مصر زعلان جدا منكم يعتبر تدريس الرواية دى ودعوة كاتبها نوعا من التحدى له وللحكومة المصرية .. وقلت للمستشار الثقافى « وإذا بليتم فاستتروا ،

فأرجوك ألاتتكلم .. هذا كلام يسيء إلى مصر .. واحتج بلاشير على تدخل المستشار الثقافى هذا . وقال له أنه هنا فى باريس . وفى معهد علمى له تقاليد .. وهذا المعهد حر فيما يقرره على طلابه ، وفيمن يدعوه ، وليس لأحد الحق فى التدخل ، لا وزير التعليم المصرى ، ولا حتى حكومة فرنسا نفسها ..

وعندما رويت لطه حسين ما كان من المستشار الثقافى المصرى امتعض امتعاضا شديدا ، وقال : « ما كنت أحسب أن الحمق شديدا ، وقال : « ما كنت أحسب أن الحمق يمكن أن يدفع أحد الحمقى إلى هذا المدى » !!

مع اراجون

والتقيت بأصدقاء من المصريين اليهود الذين اضطرتهم الحكومات المتعاقبة إلى الخروج من مصر ، منذ دارت الحرب بين العرب وإسرائيل ، فتفرقوا فى أرض البشر وأقام معظمهم فى باريس :

أسباب معاشه مرتبطة بفرنسا ، وعواطفه وآماله موصولة بمصر ، وطنهم الذى أخرجوا منه !..

كانوا يعملون النهار والليل من أجل مصر .. وينتظرون وصول أى مصرى يعرفونه ليسهلوا له الإقامة والاتصالات التى يريدها ما استطاعوا .. وكان أكثرهم يعمل فى إطار حركات التحرر الوطنى ، مع اليسار الفرنسى ..

اقترح أولئك الأصدقاء على لقاء مع اراجون . وشعرت بفرح عظيم .. وخيل إلىَّ أن هذا اللقاء حلم بعيد المنال ، أو هو بالقليل أمل طيب !! وعدت إلى فندقى وبى من الفرح مثل ما كان بى يوم ذهبت لأول مرة لأستمع إلى محاضرة لطه حسين .. أيتاح لى لقا اراجون !! أممكن هذا !؟

ولم أكد أستقر فى الغرفة حتى سمعت قرعا شديدا على الباب .. لم يكن فى الغرفة جهاز للتليفون .. فجهاز التليفون موجود فى ممر كل طابق من طوابق الفندق .. وقبل أن أفتح الباب سمعت صوت عاملة الفندق يستحثنى فى قلق :

اراجون على التليفون أسرع .. اراجون لا ينبغى أن ينتظر أحدا على التليفون وأسرعت أرد عليه ، وحدد لى موعداً للقائه فى قاعة الفندق الذى يقيم به طه حسين .

كان صوت اراجون يتناهى إلى عبر الهاتف عميقا ، فتيا رصينا فى الوقت نفسه .. كان فى طريقة كلامه شىء يشبه طريقة طه حسين .. وكان صوت اراجون مؤثرا جدا .. وتذكرت ما كتبه عنه كلودروا يصف نقاء صوته وحرارته وقدرته على أن يشيع فى السامعين الإحساس المطمئن بالصدق ..

ثم التقيت بأراجون .. صحبنى إليه أحد الأصدقاء من المبعدين من مصر .. ورأيته كما قرأت أوصافه فى كتاب كلودروا : سريع الحركة ، فى عينيه وهج ذكاء .. أنيق الملبس ، أنيق الحديث تغلب على ملابسه ألوان السماء !! ها أنذا مع اراجون وجها لوجه : هذا الرائد العظيم للشعر السوريالى ، ثم للشعر الواقعى ، ثم لشعر المقاومة .. ولم يكن لأحد من شعراء المقاومة الفرنسية مثل ذيوع اراجون ، وإيلوار .. وهناك رجال ونساء تحب أن تسمعهم ، وتحب من خلالهم اللغة التى يتحدثون بها .. ومن هؤلاء اراجون .. وقد عجبت كيف لم ينصحنى أحد للاستماع إليه عندما كنت التمس أن أسمع منه فصاحة النطق الفرنسى حين جئت باريس فى إجازة دراسية لأنها من ثقافتها .. لقد نصحونى بالمواظبة على مسرحيات الكوميدى الفرانسيز ، وبالإصغاء إلى جاك ديكلوا سكرتير عام الحزب الشيوعى ، وكان حقا من خطباء العصر ولم ينبهنى أحد قط إلى اراجون .. ربما لأن أداته فى التعبير كانت الكلمة المكتوبة لا المنطوقة ! كنت قد أقبلت على اراجون وسماء باريس تبدو شديدة الصفاء عميقة الزرقة .. وفجأةأكفهرت السماء ، وغشيها السحاب الأسود ، ودوت الرعود ، وأومض البرق وانهمرت السماء بمطر غزير .. وقال اراجون : « يقولون أن سماء باريس كنساء باريس شديدة التقلب ! » وأطلق ضحكاته وهو يتوثب فى مكانه .. وشعرت بعد حين أننى أعرفه من زمن ، وسادنا شعور بالألفة وشكرنى لأنى ترجمت بعض قصائده إلى العربية ونشرتها فى مصر .. وبغتة قال لى : ولكن لى عليك عتاب « ثم سكت ليقول بعد ذلك أنه يتمنى أن تترجم مختارات من شعره إلى العربية وتنشر فى مصر بمقدمة من طه حسين .

وفى جو الألفة الذى استطاع أن يشيعه بيننا أبدى عجبه لأنى هاجمت طه حسين !! وقلت له أنى لم أهاجم طه حسين وإنى - على النقيض - أحمل له كل التقدير والاحترام ، ولكننى اختلفت معه ، وعبرت عن رأيى فى عبارات كلها إكبار له ، حتى إنه فى بعض محاوراتنا كتب يشكر لى هذا التبجيل وإننا لنسميه عميد الأدب العربى، وهو طه حسين أكرم علينا مما يمكن لأحد منكم أن يتصوره ! فابتسم اراجون واندفع يقول لى « أن طه حسين كنز ثمين جدا يجب أن يصان .. ومن أيسر حقوقه على كتاب اليسار العربى أن يحرصوا على إرضائه .. ثم استرسل يقول إن مصر يجب أن تفخر بطه حسين ، وإن العرب يجب أن يشعروا بالسعادة لأن فيهم أديبا ومفكرا مثل طه حسين ، ولو كان طه حسين من أوروبا لشرف كل دول أوروبا .. وأسعدنى هذا الثناء وقلت له إن طه حسين على رأس مفاخر العرب حقا ثم سألته أتعرف أن طه حسين هنا فى هذا الفندق ؟ وبان السرور على وجهه وقال إنه ليتمنى أن يلقاه ..

وعندما انصرف اراجون ، تحدثت بالهاتف إلى طه حسين أسأله موعدا للقاء فلما عرف أننى أحدثه من قاعة الفندق طلب منى أن أصعد إليه من فورى .

ورويت له ما قاله أراجون عنه ، فسألنى أين قابلت أراجون .. ولما عرف أنه كان معى فى الفندق أبدى دهشته واللهفة إلى لقائه .. ثم قال « غير أنى لا أستطيع أن أطلب منه ذلك ، فأنا ضيف على باريس ، وكان يجب عليه أن يبدأ بالسؤال .. وشعرت منه أن ثمة جفوة ما بين الصديقين .. ولكنه لم يفض إلىَّ بسبب تلك الجفوة ، ولا أنا سألته عن ذلك .

فلما عدت إلى الفندق طلبت من العاملة أن تطلب لى أراجون .. وكانت منذ طلبنى تعاملنى باحترام خاص لا تمنح مثله أحدا غيرى من نزلاء فندقها الصغير ..

ورويت لأراجون ما رأيته من لهفة طه حسين إلى لقائه ، ولكنه يرى أنه فى باريس ضيف على أراجون ، وأن من واجب أراجون أن يبدأ هو الاتصال به .. ووعد أراجون أن يتصل بطه حسين وفى اليوم التالى أبلغنى بأنه يريد أن يلقانى فى بهو الفندق حيث التقينا من قبل .. ثم علمت من طه حسين من خلال الهاتف أن أراجون قادم لزيارته ..

وكان صوته ينم عن السعادة حقا .. وطلب منى أن أشهد هذا اللقاء ولكنى آثرت أن يتم اللقاء بلا ثالث ، علاقته بكل منهما ليست فى عمق ولا فى قوة علاقة أحدهما بصاحبه ، فربما جرى بين الصديقين عتاب ، وقد يفسد وجودى ما ينبغى أن يتوافر لهذا العتاب من جو حميم !

ووافقنى أستاذنا الدكتور طه .

فلما قابلت أراجون فى بهو الفندق - طلب أن أشهد لقاءه بالدكتور طه ، فكررت عليه ما قلته آنفا ، فهز رأسه وابتسم ثم صحبته إلى جناح أستاذنا وشهدت حرارة اللقاء وسعادة كل منهما بالآخر ، ثم بدأ العتاب ، فانسحبت دون أن يشعر بى أيهما .

ورأيت أراجون ثم طه حسين بعد اللقاء فأشهد ما رأيت أحدا منهما أكثر سعادة أو اهدأ بالا ، مما كان بعد ذلك اللقاء !

عود إلى نصائحه

لم أنس ما عبر لى عنه طه حسين من ندم لأنه فى شبابه قسا فى الهجوم على شوقى والمنفلوطى .. وفى الحق أننا كنا نقرأ للعقاد والمازنى هجوما على شوقى أقسى من هجوم طه حسين .. وكنا نحترم الجميع على السواء .. ما انحزنا إلى واحد منهم ولم نفقد الثقة فى أحد منهم .. من الصحيح أننا كنا نشعر ببعض الحزن لعنف الهجوم وكنا نضيق ببعض الأحكام ، كزعم أن العقاد أشعر من شوقى .. فلا نحن صدقنا هذا ولا نحن انصرفنا عن قراءة شوقى أو الاعجاب به ، ولا نحن فقدنا الثقة فى ناقديه وقد صارحت أستاذنا الدكتور طه حسين بهذا ، فسر له ، وقال إن هذا مما يخفف عليه وطأة الندم كلما تذكر قسوته على المنفلوطى وشوقى .

ثم قلت له وأنا أحاوره إننى لم أهاجم أدب الزيات أو أدب العقاد ، فأنا أعرف لكل منهما مكانته وأذكر له أياديه .. أما الزيات فهو كغيره من الأسلوبيين - كالرافعى والمنفلوطى - صاحب فضل على جيلنا ، فقد جلوا أمامنا جميعا روعة البيان العربى ، وغنى لغتنا وإمكاناتها .. وأما العقاد فأنا لا أجحد فضله ، فهو الذى هز أفكارنا

ودفعنا إلى التأمل ، وهو أحد الذين يسروا العربية للتعبير عن أدق المعانى وأخفاها وأشدها عمقا ، مع الاحتفاظ بجمالها وبهائها ونصاعتها وموسيقاها !!

فضحك الدكتور طه : أتظن أن هذا صحيح على إطلاقه ؟ هل قرأت العبقريات للعقاد فلما قلت له أنى قرأت كل ما كتبه العقادسألنى ضاحكا : « أفهمت عبقرية الصديق ؟ » قلت نعم فقال : أما أنا فلم أفهمها ! ومهما يكن من أمر فما ينبغى لك أن تهاجم الزيات ولا العقاد بمثل ما اصطنعت من عنف لكيلا تندم فيما بعد فقلت إننى لم أهاجم أدب أى من الكاتبين ، ولكنى كرهت لهما أن يتهما بالإلحاد والشيوعية - والشيوعية جريمة فى القانون المصرى - كل من كتب للقصة حوارا بالعامية وكل من كتب الشعر الحديث .. فالعقاد له محاولات فى كتابة الشعر الحديث .. تضمنها أحد دواوينه ولعله عابر سبيل ! ومهما يختلف المعبرون بالكلمة فما ينبغى لأحدهم أن يرهب مخالفيه فى أساليب التعبير باتهامات غليظة وكبيرة ومخيفة !

والعقاد أحد الذين أثروا فى جيلنا .. ولقد أذكر أننى ظللت وأنا طالب بالمدرسة الخديوية الثانوية منتميا لحزب الوفد ، حتى إذا فصل الوفد العقاد انحزت إليه وأرسلت قصيدة تأييد له نشرها فى جريدة روزاليوسف اليومية على رأس صفحة كان ينشر فيها رسائل تأييده ضد قرار الوفد وقد جعل عنوانها : « صوت الشعب لا حملة القماقم من فلول اللجان الوفدية !

وللعقاد تأثيرا أعمق من هذا ، فقد كنت ألفت حفظ الشعر وحفظت كل ما وقعت عليه من شعر حتى قرأت للعقاد أن الأفضل لتقوية ملكة الكتابة قراءة الشعر لا حفظه !

والعقاد فتح عقولنا على كثير من معطيات الثقافة الإنسانية .

أما الزيات فجيلنا تربى فى مدرسة الرسالة ، المجلة الثقافية القيمة التى كان يصدرها .. ثم إنى مدين له شخصيا باستمرارى فى الدراسة حتى حصلت على ليسانس الحقوق ، وبذلك حققت رغبة والدى !.. ذلك أننى كنت وأنا طالب بكلية الحقوق قد أرسلت بعض قصائد إلى المجلات الأدبية ، ومنها الرسالة فنشرتها - وكان النشر فى الرسالة

حينئذ اعترافا بالوجود في الحياة الأدبية .. وكانت مجلة الرسالة تقع في عمارة بسكة راتب باشا بين عابدين والحلمية الجديدة حيث كنت أسكن .. كم كانت الحياة جميلة في ذلك الحي الذي يعطر جوه عطر الياسمين ، وتخفق على أنسامه أنغام شجية .

ومررت على دار الرسالة ومعي قصيدة جديدة وطلبت مقابلة الزيات ، فقابلته ، وسلمته القصيدة فقرأها ، ثم قال لي : سأنشرها الأسبوع بعد القادم إن شاء الله لأن مواد الأسبوع القادم كلها في المطبعة وسلم لي كثيرا على الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي فقلت له : أنا هو سألني عن عملي فقلت له طالب بكلية الحقوق .. فغضب وأعاد إلي القصيدة ونصحني أن أعود لأستذكر دروسي وأواظب على تحصيل العلم ، فإذا حصلت على الليسانس أعود إليه بالقصيدة لينشرها وإلا فلا وأقسم ألا ينشر لي كلمة حتى أنهي دراستي !.. وخرجت من مكتبه ألعن الزمان وفي أعماقي يدوي نذير مخيف من أحد أخوتي الكبار : « أني لن أفلح في الدراسة أبدا ، فالأدب يلتهم مني الوقت كله وسينتهي بي الأمر إلى التصعلك والضياع ! وكان النشر في الرسالة أهم من الليسانس » حتى إذا ما حصلت على ليسانس الحقوق ذهبت إلى الزيات بالقصيدة ، فأنجز ما وعد .. وأتيح لي بعد ذلك أن أزامله في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .. ثم إن الزيات غير موقفه من الشعر الحديث .. كان قد شاهد مع أعضاء مؤتمر مجمع اللغة العربية مسرحية لي أسمها « مأساة جميلة » قدمها المسرح القومي ، وحين التقينا قال لي الشعر الحديث صالح جدا في المسرح .. وأنا أجيزه بل أفضله على الشعر التقليدي في المسرح فقط . أما القصيدة فيجب أن تلتزم الشكل المتوارث .

لم تكن إقامتي في باريس قط بمثل جمال تلك الأيام ولا في مثل ثرائها الفكري .. ولقد ألفت لقاء أستاذنا طه حسين .. وعندما حان رحيله إلى مصيفه في جبال الألب شعرت ببعض الأسى ! .. وسافر الدكتور طه ، فأحسست بالوحشة ، وبشيء كالفراغ ، وبحزن غامض !

ومضيت أتجول في شوارع باريس وحيدا ، كما تعودت يجيش منى الصدر - والأفكار فى الرأس ، وأنا أخوض في تاريخ نضال هذه المدينة ، وتفتح أمام قلبى رؤى من كنوزها الروحية .. ولكم أولعت بالسير في الأماكن التي لها تاريخ !! هنا عاش عبر العصور رجال عظام أحببتهم وفي الطليعة منهم فيكتور هوجو الذى ما زلت أتغنى بكلمات له أذكر منها « لو لم يدافع عن الحقيقة إلا ألف لكنت منهم ، ولو أصبحوا مائة فأنا منهم ، ولو نقصوا إلى عشرة لظللت منهم ، ولو أصبحوا واحدا فأنا هو هذا الرجل الواحد الوحيد .

١٩٨٧/٣/٤

ذكريات .. وأمنيات !!

انقطعت عـن الـكتابة مضطراً ، فلقد لزمت الفراش نحو عشرين يوماً .. فمعذرة ! والمرض امتحان شديد .. وقد أتاح لى فرصة للتأمل لا تتاح لنا فى زحام الحياة .. ورجعت الذاكرة بى إلى الأيام الحالمة ، والمثقلة بالعمل ، وهاتيك الليالى الباهرة المضيئة بالأمل ! كانت الحياة أيسر مما هى الآن ؟!

وكأن النهار كان أشد سطوعاً ، وكأن الليل كان أكثر إمتاعاً !!

لم يكن للنهار قط مثل هذا الشحوب ..!! ولم تكن للهواء رائحة السم !.. ولم تكن بالفضاء هذه الضوضاء التى تصيب بالصمم !.. لم تكن الحياة قد عرفت التلوث بعد ، لا فى الماء ، ولا فى الهواء !! لم نكن قد عرفنا بعد هموم زماننا هذا الأغبر !.. كانت شوارع القاهرة تزدهر بالخضرة ، وكانت رائحة الخضرة ، وأنفاس الفل والياسمين تعطر الانسان .. لم يكن للريح مثل هذه الشراسة ، ولم نكن بعد قد عانينا سحابات البعوض ، ولا أرتال الذباب !!

كانت السماء أحنى مما هى اليوم .. حتى السحاب إذ يغشاها ، كان أنبض بالروعة ، وأحفل بالشجن ، وأقدر على الإيحاء !! كان الإخاء أوثق قربى ، والأقرباء أشد إخاء ، والأصدقاء أنبل مودة ..!

كان الصيف أندى طراوة ، والشتاء أكثر دفئاً ورحابة ! وحتى برده لم يكن ليقرص ، بل كان يبعث النشاط فى الأوصال .

من لى بذلك الزمان الماضى إذا الخريف يثير فى النفس حزناً نبيلاً غامضاً ، وإذا

الربيع يدفع العقل إلى المغامرة والاقتحام ، ويملأ القلب بالرغبة العارمة فى اجتناء ألوان جديدة وغريبة من السعادة ، ويعب فى أغوار النفس شعوراً بالقدرة الخارقة على الإبداع ؟! ووا أسفا على ما نحن فيه مما يصد النفس ويملأ الصدر بالهواء الملوث ، ويغشى العين بالقبح ، ويصم الآذان بالضجيج ! واحسرتا مما يثير الغثيان !!

أين ولى ذلك الجمال كله ؟! كيف ذوى ؟! وفى أى مدائن الموت اختنقت الأنغام ، وفى أى وديان الظلال الخرساء شلت الأنسام ؟!

كيف أصبح للباطل صولة ، واستغلظت الخديعة فصارت صاحبة دولة !؟.. كيف بات الزمن الطاهر الخصب زمناً عقيماً فاسداً ؟!

من لى بأيام الصفاء الأولى ؟!

أية يد مخربة امتدت إلى القاهرة ، أم المدائن فهدمت عمائرها الجميلة ، وبيوتها الفسيحة المريحة ذات الحدائق ، وأقامت على أشلاء جمالها المعمارى ، كل تلك الأبنية القبيحة الشاهقة القميئة مع ذلك ، والتى تكاد تطبق بتزاحمها على الصدور ؟!

ولكن كيف تركنا القاهرة العظيمة أم المدائن تفقد خصائصها ، وكيف أشعنا فيها مكان عبق التاريخ ، كل هذه الروائح الكريهة الخانقة ؟!

لقد فتحنا عيوننا على القاهرة نظيفة جميلة عطرة ، مطهرة ، تزدان بألوان الزهر ، وتخفق أنسامها بأنغام عذاب ، وتعج بمعطيات الثقافة والفكر والفنون ، ويتفيأ فيها العقل الظامىء ظلال المعرفة : رياً وجنى ، كلما عذبه الهجير !.. فأين ضاع هذا كله ، وكيف ضاع ؟!.. لماذا لم تعد القاهرة بعد قادرة على أن تستجيب لأشواق محبيها أى غباد قهر القاهرة ؟!

ألم يعد من الممكن أن نعيد للقاهرة جمالها ، ونرد عليها خصائصها السليبة ، ونعيدها كما كانت منارة للمعرفة ، ومنهلاً للثقافة والفن والفكر ، وآية لعظمة القدرة الإنسانية ، ومجالى للحب ومراتع للإخاء ومثابة للناس وأمنا ؟

ألم يعد هذا ممكنا بعد ؟!

بل هو ممكن ، وأنه لواجب أيضاً وهى ليست مسئولية حكومة بالذات ، أو أية جهة إدارية بعينها ، ولكنها مسئولية جميع الذين يحبون القاهرة ، ويحرصون عليها ، ويريدون أن يستنشقوا منها الهواء النقى ، وأن يتزودوا منها بما تمنحه الثقافة والحرية والعدالة من إحساس بالقدرة والعزة والكبرياء وراحة الضمير ..

إننا حين نخوض فى طرقات القاهرة ، المثقلة اليوم بما يحزننا ، لا نملك إلا أن نتذكر قاهرتنا العزيزة فى الأيام الجميلة الماضية ، قبل أن يقهرها التخريب ، والحمق ، واللامبالاة .. أيام كان المشى فى طرقات القاهرة متعة .. وأيام كنا نستطيع أن نرى فى أرضها أجمل الزهر ، والقمر ؟!.. أما الزهر ، والقمر فى أيامنا هذه الغبراء ؟!.. أما الزهر فغمرته المزابل ، ووأدته الحفر وغمرته مياه طفح الصرف الصحى .. وأما القمر فحجبته عنا العمارات المرتفعة تلك الطبقات الكريهة من الأسمنت المسلح المتوالية فى رتابة ممضة ، والتى تصدم الذوق الإنسانى الرفيع .

فى يوم ما كنت تستطيع أن تمشى فى القاهرة ساعات وساعات فلا يأخذك التعب ، ولا يتسلل إليك الملل ، لأنك فى كل لحظة ترى ألواناً من الجمال تمتع القلب والعقل .. ذلك الجمال الذى يثير الدهشة ، ويشعرك دائماً بالجدة جمال الحياة والناس !..

ويا للذكريات !

قاهرة الأمس

كنت تجد دور المسرح تقدم إليك أروع المسرحيات الممتازة عبر تاريخ المسرح منذ اليونان وكنت أحيانا تجد مسرحين كبيرين متجاورين يقدمان المسرحية نفسها .. كان يوسف وهبى وفاطمة رشدى يقدمان معاً فى منافسة شريفة : مسرحية يوليوس قيصر وعطيل وهاملت ، لشكسبير ، والنسر الصغير وسيرانو دى برجراك لأدمون روستان ، ومجنون ليلى لأحمد شوقى .. وإلى جوار هذين المسرحين العظيمين ، كنت تجد فرقة جورج أبيض تقدم الروائع العالمية .. وما زال رجع الصدى من صوته الذهبى يتردد فى أعماقنا ..

وكان كبار كتابنا وشعرائنا هم الذين يترجمون المسرحيات العالمية : المازنى ، وخليل مطران ، وإبراهيم رمزى وكانت الفرقة الفرنسية الكبرى حين تعرض لويس الحادى عشر فى القاهرة تسند دور لويس لجورج أبيض وآخرين .. وكان شارع عماد الدين - ويا لبشاعته اليوم ! يضم كل تلك المسارح الرفيعة ويضم إليها مسارح استعراضية ومسرح الريحانى وعلى الكسار ، وكلاهما يقدم لونه الفكاهى الخاص ، وكانت بينهما نقائض ممتعة فى مواضيع وفى أسماء المسرحيات : هذا يعلن عن مسرحية عنوانها الدنيا بخير فيناقضه الأول بمسرحية اسمها الدنيا على كف عفريت .. وهكذا .

وكان فن الأوبريت مزدهراً ، والموسيقى المصرية تستجيب لكل الأذواق : لمحبى الطرب ، ولمحبى البناء الموسيقى المركب . وإلى جوار كل هذه المسارح كانت تقوم صالات للرقص وهى ليست كتلك التى تنتشر فى شارع الهرم الآن ، وتكاد تصم الهرم نفسه !.. بل كانت صالات ذلك الزمن مجمعات فنون مختلفة ، فهى تقدم مسرحية فكاهية نقدية من فصل واحد ، يشترك فيها نجوم الكوميديا ، وتقدم رقصات شرقية جماعية وفردية ، وتقدم المنولوج الساخر الذى ينتقد ما يراه سلبياً فى المجتمع ، وتقدم فن النكتة بلا ابتذال ، وتقدم الغناء الشجى .. وفى تلك الصالات لمع عدد من نجوم الغناء العربى من الرجال والنساء ..

فإذا تركت شارع عماد الدين ، وجدت دار الأوبرا تقدم أعظم الفرق الأجنبية .. فرقاً مسرحية مثل الكوميدى فرانسيز واولد فيك ودبلن جيت ، وهى تمثل أعظم ما فى التراث المسرحى الإنسانى من مسرحيات سوفوكليس ، ويوريبدس ، وأرسطوفان ، وشكسبير وراسين ، وكورينى ، وموليير ، وهوجو ، وشو ، وغيرهم .. وما بين زيارات هذه الفرق المسرحية ، كانت دار الأوبرا تعرض لفرق الأوبرا والباليه العالمية .. وكان المتذوق المصرى ينهل من كل ما لدى العالم من ثقافة وفنون وفكر ، وكنا نسمع أن سارة برنار ، أعظم ممثلة فرنسية لما انتهت من تقديم موسم مسرحى فى القاهرة حمل المعجبون عربتها من المسرح إلى الفندق الذى كانت تقيم فيه .

وكانت المكتبات لم تتحول بعد إلى محلات أحذية ، أو إلى بوتيكات ، أو كافتيريات ، وكنت تستطيع أن تجد فى المكتبات المصرية أحدث ما أنتجه العالم فى كل فنون المعرفة ، وكل الدوريات ذات القيمة الفكرية والفنية .

وكانت القاهرة تزدحم بمنتديات الثقافة والفكر والفن .

وكان فى طليعتها جمعية الشبان المسلمين وجمعية الشبان المسيحين ، ونادى خريجى دار العلوم ، وخريجى معهد التربية العالى ، نادى خريجى التجارة ، قاعة أيوارت ، نادى الجامعة (للطلاب والأساتذة) ، وجماعات أخرى عديدة كل منها يقدم فى يوم معين من الأسبوع محاضرة أو مناظرة من كبار المفكرين والمثقفين ، ومن الشباب طلاب الثقافة .. حتى لقد كانت الحيرة تدهم الإنسان أيها يأخذ وأيها يدع !!.

أين هذا كله الآن ؟! من ذا الذى أغلق أبواب مصر دون تيارات الثقافة والفنون والفكر ، وقد كانت مصر طوال تاريخها هى نافذة أفريقيا والعرب على العالم الخارجى ، ومن خلال مناراتها سطعت المعارف على الدنيا كلها وعبر أبوابها تدفقت معطيات الحضارات الأخرى وكان اختلاطها وتفاعلها بما تمثله مصر من حضارات ثراء عظيماً للإنسانية .. من ذا الذى حرمها من هذا كله ، ولطخ وجهها ، وأغطش ضحاها ؟!

فى تلك الأيام المجيدة الذاهبة كان المصرى أخاً للمصرى حقاً لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ولا يعربد عليه ، أو يفتك به .. كنا أينما سرنا من أرض مصر نجد الهلال يعانق الصليب ، تعبيراً عن وحدة شعب تمتد جذوره الحضارية إلى فجر التاريخ ..

ولقد أذكر أننا كنا ونحن صغاراً لا نعرف دين الذين نصطفيهم لصحبتنا من الزملاء أو الجيران ، إلا إذا دلت الأسماء دلالة واضحة .. ولقد ننفق السنوات ونحن لا نعرف، حتى تكشف ذلك المصادفة ونتبادل المجاملات فى أعيادنا الدينية المختلفة..

ولقد أذكر أن الدائرة الانتخابية التى تنتمى إليها قريتى ، اختارت محامياً صغيراً من الأقباط ، على أحد كبار الباشوات المسلمين من أصحاب الثراء والجاه العريض .. ذلك أن الناس هناك وأكثرهم مسلمون رأوا فى المحامى الناشىء القبطى

تعبيراً أكمل عن آمالهم القومية ، وتمثيلاً أصدق لإرادتهم فى مجلس النواب (مجلس الشعب الآن) .

ولقد أذكر أننا حين توفى ويصا واصف رئيس مجلس النواب ، تركنا مدارسنا ، وخرجنا نشيعه ونحن صغار ، وكان شيوخ الأزهر فى طليعة المشيعين ، ودعته مصر كلها بالدمع السخين .. وويصا واصف مناضل باسل ، عرف فى التاريخ المصرى بلقب محطم السلاسل .. ذلك أنه عندما جاءت إحدى حكومات الأقلية المستبدة حلت مجلس النواب عدوانا بغير حق ، وجعلت فى أبوابه السلاسل الحديدية ، وأقامت دون المجلس حراسة مشددة ، فدعا ويصا واصف إلى اجتماع عاجل للمجلس ، وأعلن أن إجراء الحكومة المستبدة غير دستورى ، وعندما حاولت القوة الغاشمة أن تمنع النواب من الدخول ، اقتحم رئيسهم ويصا واصف ذلك الحصار ، وخاض الغمرات ومن ورائه النواب ، حتى حطم السلاسل من على الأبواب ، وأفاض الجميع إلى المجلس ، ليعلن ويصا باسم الشعب بطلان قرار الحكومة ! وما زالت الصفحات المضيئة من تاريخ كفاحنا الشعبى تتلألأ باسم سينوت حنا الذى أطلق عليه الشعب لقب النائب الجرىء ولقد أذكر أننا كنا ونحن طلاباً نتحلق حول أستاذنا سلامة موسى فى جمعية الشبان المسيحيين ، كان أكثرنا مسلمين لنتزود مما يطرحه علينا من معارف .. وكنا نشعر أننا جميعاً مدينون لسلامة موسى بكثير من مقوماتنا الفكرية والثقافية ، كما شعرنا بهذا الدين لمكاريوس وصروف .

لقد ننسى كثيراً من الذكريات ولكننا لن ننسى مكرم عبيد .. كان وحده مدرسة فى الوطنية وفى الخطابة والبلاغة ، وكانت الصحافة المناضلة تطلق عليه لقب « المجاهد الكبير » على الرغم من أن الجهاد والمجاهد من التعبيرات الإسلامية الخالصة .. لن ننسى نشوتنا ونحن نصغى لخطاباته المجلجلة البليغة الرائعة ، التى كان يحرص على ترصيعها باقتباسات وتضمينات من القرآن الكريم ، وكان يرتل القرآن ترتيلا ..؟!

ولقد أنسى ذكريات عزيزة على ، ولكننى لن أنسى أبداً المعلم الحاج يوسف ، صراف المنطقة التى فيها قريتى .. كانت القرية كلها مسلمين ، ليس فيها قبطى

واحد .. وكان الحاج يوسف يلم بقريتنا ليحصل ضرائب على الأرض .. وفى السنوات العجاف عجز بعض أصحاب الأرض عن أداء الضريبة وكانت التعليمات واضحة وحاسمة للحاج يوسف أن يوقع الحجز على الأرض التى لم يؤد صاحبها ضريبتها .. ولكن الحاج يوسف رفض أن يوقع حجزاً ، واحدا ، وأثر أن تعاقبه الدولة ، على أن يضر أحداً أو يؤذى شعور أى من صغار الملاك !! ويا الله ما كان أنبله ، وهو يتحمل بشجاعة تلك المسئولية ، ويحمل عن الفلاحين عنت الحكومات الغاشمة ويقابل كل ما يلقاه بابتسامة هادئة تشيع فى نفوس الفلاحين ثقة غريبة بأن الفرج قريب ..

.. فى تلك الأيام المجيدة الذاهبة لم تكن مصر تعرف قبطياً ومسلماً ، بل كانت تعرف أن الكل أبناؤها .. الكل مصريون مهما تختلف دياناتهم .

لقد نشأنا ونحن صغار على أن كل أبناء مصرأخوة ، وعلى أن الدين لله والوطن للجميع ، وعلى أن القبطى مسيحى دينا مصرى وطنا ، كما تعلمنا من مكرم عبيد ، ومن الأصوات العظيمة النبيلة التى حفظها لنا التاريخ من ماضينا الجليل ، عبر انتفاضات شعبنا العظيم وثوراته تعلمنا هذه الوحدة الوطنية منذ وعينا أولى الكلمات ..وتعلمنا أن الصدق هو شرف الإنسان ، وأن الكذب هو عاره !.. وتعلمنا مع أولى الكلمات أن الحق فوق القوة ، وأن الإنسان الفاضل يفوز بلا مراء ويحبه الآخرون ويضعونه مكاناً علياً ، وأن الإنسان الشرير يتساقط لحمه وهو حى قطعة بعد قطعة !! وتعلمنا أن الرذيلة لا تسود ، وأن مثيرى الفتنة تدهسهم الأقدام ، فى زحفها نحو التقدم ، وتعلمنا أن جزاء الإحسان هو الإحسان ، كما تعلمنا أن الخديعة والزيف والبهتان مسوخ شوهاء ، تقتات بنفسها حتى تنتهى إلى فناء !

ولكننا كبرنا لنحيا إلى زمن يرفع فيه الكذب قدر الكاذبين على أكتاف الصادقين!!.. عشنا لكى نرى الزيف يقهر الصدق ، والفضائل تئن من الوحشة ، بينما الرذائل تعربد على الحياة !.. عشنا لكى نرى اللصوص يستمتعون بالطيبات والشرفاء يعانون ويتعذبون ويهلكون فى الحرمان . عشنا لكى نرى جزاء الإحسان هو الجحود والنكران !! وهذا كله غير ما تعلمناه ونحن صغار !!

لكم هى مضنية حقاً كل هذه الذكريات !! ولكم تمنيت أن تكون مضيئة لا مضنية ولكن فيها على الرغم من كل شيء كثيراً من العزاء !..

ذلك أننا إذا كنا قد بلغنا ذات يوم مستوى رفيعاً من التحضر ، ومن القدرة على البذل والعطاء ، فنحن بلا مراء قادرون على أن ننهض من الكبوة ، وعلى أن ننتفض من تحت الحطام لننفض عنا التراب ، ونقيم أعظم البناء .. بناء حاضر رغيد ومستقبل سعيد يطاول السحاب ..

فلنذكر أن صحافتنا كانت ذات يوم تقدم مأدبة عامرة بثمرات الفكر والفن .. كان الرأى الحر فيها يصاول قلاع الاستبداد ، ورحم الله زماناً قال فيه العقاد أن الشعب يملك أن يحطم أكبر رأس فى البلاد ..

رحم الله زماناً كانت الصحف اليومية تقدم صفحة يومياً للثقافة ، وكانت المجلات الثقافية الدسمة تصدر بالعشرات ما بين شهرية ونصف شهرية وأسبوعية ، وتنفذ بعد صدورها بساعات ..

رحم الله زماناً لم يكن أحد فيه يستأثر بكتابة افتتاحيات الصحف ، بل كان كبار الكتاب هم الذين يكتبون الافتتاحيات ، وكانت الصحف تروج بأسمائهم ، وبصدق أخبارها ..

لقد كان عبد القادر حمزة صاحب جريدة يومية ورئيس تحريرها ، وهو أحد كبار المثقفين ، وكانت كتاباته تعبر عن نصاعة البيان ، وعفة اللسان ، وشرف الخصومة ، وكان ينشر مقالاته اليومية فى صفحة داخلية ، ليترك الصفحة الأولى للعقاد .

كان كتاب الصفحات الأولى فى ذلك الزمان الجميل هم : طه حسين ، د. محمد حسنين هيكل ، د. محمود عزمى ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، د. أحمد طاهر ، منصور فهمى ، توفيق الحكيم ، أحمد أمين وغيرهم من كبار الكتاب والمفكرين .

ولم يكن النقد الفنى حرفة من لا حرفة له ، ولا سبيلاً للابتزاز أو للتربح ، ولا مرتعاً للجهلاء ، ولا متنفساً للأحقاد .. لم يكن صبيان صناع الأحذية قد تسللوا

إلى مجالات النقد ليحاولوا صب الإبداع الفنى فى قوالب جامدة كقوالب الأحذية .. ولم يكن النقد حرفة بعض المرتزقة .. بغاء الأجسام ولم تكن حرفة البغاء والأقلام قد حولت بعض محترفيها إلى ناقدات .. كان الذين يكتبون فى النقد الفنى من كبار المثقفين ، منهم طه حسين والمازنى وإبراهيم المصرى وزكى مبارك ومحمود كامل وزكى طليمات .. من أجل ذلك تقدمت الفنون جميعاً .. وكذلك النقد الأدبى ، نهض به نقاد كبار شرفاء من أهل الأدب والفكر فنزهوه عن الأحقاد وتصفية الحسابات .

أبو الشهداء

وفى ذلك الزمان لم يكن الإنسان بعد قد تحول إلى صياد وفريسة .. ويا للعنة التى أصبح يشقى بها القلب الظامىء إلى العدل والحرية ، والحب والجمال .. كيف أصبح الزور هو سلطان العصر ، وأصبح الحق للقوة ، بدلاً من أن تكون القوة للحق ؟!

ماذا بقى للإنسان بعد ، إذا كان الإنسان باسم الدين يفتى بأن يأكل الإنسان الجائع لحم أخيه الإنسان الشهيد ؟!

ماذا بقى للإنسانية بعد ، إذا كانت لحوم الفلسطينيين قد حللت للجائعين ! ما رأى صاحب هذه الفتوى فيمن يجيع أخاه حتى يهلك ، وفيمن يمزق بالرصاص لحوم الأطفال والنساء والشيوخ ؟! ألا يكفى الفلسطينيين ما ابتلاهم به العدوان العسكرى الإسرائيلى الغاشم من تمزيق بطون الأمهات وقتل الأجنة ، ومن شرب دمائهم ، وانتهاكهم ؟!.. ألم يكفهم ما عانوه على مدى نحو أربعين عاماً ؟!

أهذا هو ما يقدمه لهم الأشقاء العرب ؟!

إن هؤلاء الأشقاء لا يستطيعون أن يجيعوا حيواناً حتى يهلك خشية أن يتهمهم المجتمع ، المتحضر بالوحشية !!.. إنهم لا يستطيعون أن يحرموا حيواناً جريحاً من العلاج .. ولو أنهم منعوا كلباً أو قطاً ، أو أى حيوان مدلل من العلاج لحكم عليهم المجتمع المتحضر بأنهم همج متوحشون .. ومن أجل ذلك فهم لا يجسرون !! ولربما رقت قلوبهم لكلب جريح فعالجوه أو قط جائع فأطعموه !.. ولكنهم يتجاسرون على حياة أشقائهم الفلسطينيين !

ويا لعذابنا بفلسطين .. ويالعارنا مما يلقاه فلسطينيو المخيمات !! لقد لمست قلوبنا مأساة فلسطين لأول مرة فى تلك الأيام المنتفضة من أوائل الثلاثينات ! كنا فى مطلع الشباب تدب أقدامنا الفتية على طرقات القاهرة الجميلة حينئذ ، وكأننا نريد أن نخرق الأرض ، وأن نبلغ الجبال طولا !!

كنا طلاباً فى المدرسة الخديوية الثانوية ، نعمل ونحلم ونحب ، ونملأ الحياة بالضحكات والآمال العذاب !!

وكان للمدرسة الخديوية وضع خاص ، فهى أقدم مدرسة ثانوية فى مصر ، وهى حافلة بالنشاط المدرسى لها مجلة خاصة ، وفريق للتمثيل يمد الفرق المحترفة بعناصر فتية ، وفيها فريق للكرة من أعضائه نجوم فى المنتخب القومى ، وفيها جماعات للخطابة والمناظرة يتناظر أعضاؤها فى النوادي الثقافية .. وهى مدارس مترامية الانحاء ، رحيبة الأفناء ، كان الناظر الجديد يطوف بها نحو العام ، ولا يكاد يعرف كل خباياها .. وكان بها مسرح يشبه المسارح العامة ..

وفى تلك الأيام كانت مصر تعانى من وطأة الاحتلال البريطانى ، وكان طلاب جامعتها الوحيدة ومدارسها الثانوية والمتوسطة فى طليعة الجهاد الوطنى مع عمال العنابر والنسيج وغيرهم من العمال - وكانت المدرسة الخديوية تقع فى شارع درب الجماميز ، ولها باب يؤدى إلى الحلمية الجديدة .. وكان إلى جوارها مسجد ، له باب من المدرسة ، واسمه مسجد فاضل باشا ، وكان الشيخ محمد رفعت يقرأ فيه سورة الكهف قبل صلاة الجمعة .. ولم تكن المساجد قد عرفت لعنة مكبرات الصوت المزعجة بعد .. فكنا نبكر لنجلس فى أقرب مكان من الشيخ رفعت .. وقراءة الشيخ رفعت تملأ النفس بالخشوع ، وتثير فى النفس الحنين والرهبة حتى البكاء .. وذات يوم بعد أن قضيت الصلاة من يوم الجمعة ، وهم الناس أن ينتشروا فى الأرض ، ارتفع بلهجة غريبة من على المنبر نداء : « أيها المصريون !! أيها المسلمون أدركوا فلسطين ! وجلس الناس فى أماكنهم ، وإذ على المنبر شيخ وقور له صوت جهير ولكنه حزين .. وقدم الشيخ نفسه .. أنه مفتى يافا .. وأخذ يحكى عما يصنعه الانجليز بالفلسطينيين متواطئين

مع عصابات إرهابية من شباب اليهود ، كان من أقطابها بعض زعماء كتلة ليكود السابقين والحاليين .. وأعلن المفتى أن صناديق للتبرعات موجودة فى الجامع لمساعدة مجاهدى فلسطين .. ثم أذاع أن محاضرات عن الوضع فى فلسطين ستلقى فى جمعية الشبان المسلمين ، وجمعية الشبان المسيحيين بعد عصر كل خميس وقد اختار منظموا المحاضرات هذا الموعد رعاية للطلاب الذين كانوا حينئذ يمثلون أكثر جماهير المحاضرات العامة والمناظرات ، والمسارح ، وأكثر قراء الصحف والكتب ، وعصب الحركة الوطنية ..

وتدافعنا نلقى فى صناديق التبرعات بكل ما معنا من قروش .. وكانت صناديق التبرعات متعددة ، ولكننا كنا نقبل عليها في حماسة ، ونشعر بعد أن نبذل كل ما لدينا بطيب نفس ، وبراحة غريبة . هى راحة الضمير .. كانت هناك صناديق لمجاهدى فلسطين .. صناديق لفقراء الحجاز ، وفقراء بلاد العرب ..

وأرجو من الأخوة العرب ألا يجدوا حرجاً ، فهذا تاريخ !

وصناديق أخرى لمنكوبى حريق قرية فى دلتا النيل ، وصناديق لمنكوبى السيول فى بعض مدن الصعيد .

وما كنا نفرق حين يتبرع الطالب منا بكل ما فى جيبه بين مجاهدى فلسطين ، أو فقراء بلاد العرب ، أو المنكوبين من المصريين .. كان ثمت مشاعر فطرية بالأخوة ..

ومنذ ذلك اليوم دخلت فلسطين فى وجدان شباب مصر وصبيانها ، وإذا الذين بذلوا قروشهم لمساعدة مجاهديهم وهم صغار ، يجودون بدمائهم لحمايتها وهم كبار .. حتى لم تعد فى مصر قرية لم يسقط منها شهداء على أرض فلسطين .. وفى قريتى فى ذلك الركن الهادىء الجميل من الدنيا ، على بحر شبين ، يقوم فى طريق المقابر نصب تذكارى لشهداء القرية فى حروب مصر مع إسرائيل عبر ثلاثة أجيال !

وأبناء هذا الجيل لا يعرفون أن مصر كانت متصلة بفلسطين بقطار يقوم من العريش وبطريق برى يمر بالشاطىء ويصل المشرق العربى بعضه ببعض .. وقد قطعت

إسرائيل منذ وجدت هذه المواصلات ، البرية والحديدية ولكن وجودها لم يستطع قطع الصلات النضالية .. وكان ذلك القطار يصل مصر بشقيقاتها البلاد العربية .. فقد كانت خطوط السكك الحديدية تربط ما بين البلاد العربية ، ولعل أشهر تلك الخطوط هو خط سكة حديد الحجاز .

وكان فلسطين ولبنان مصيفاً لكثير من المصريين ، وكان أدباؤنا الكبار على اتصال وثيق بالمثقفين العرب .. في تلك الأيام لم تكن لبنان قد عرفت ماتعرفه الآن ما يصم البشرية جميعاً .. لم يكن الإنسان قدتحول إلى رهينة ، ولم يكن أحد في لبنان أو في غيرها قد جرؤ بعد ، على أن يلطخ وجه الإسلام ، أو اسم الشيعة الذين جاهدوا عبر العصور أئمة الطغيان والقهر !! لم يكن أحد قد وصم الشيعة بعد ، ولا شوه الإسلام ، أو غمس يد الأخ في دماء أخيه حتى لا تستطيع كل مياه البحار أن تغسل تلك الأيدي المغموسة في دماء الأبرياء ، من الأطفال والشيوخ والنساء !!

لم يكن أحد في ذلك الزمان يملك كل هذا الإصرار على التدمير ، والإبادة ، وسفك الدماء !! ولا كل هذا الكره لحياة الآخرين !!

ولقد أذكر أن إيطاليا اعتدت على الحبشة (أثيوبيا) في تلك الأيام ، فانتفض المصريون في إدراكهم بجلال مسئولياتهم الإفريقية ، وتطوع كثير من الشباب لنجدة الحبشة ، وتبرعنا جميعاً لتزويدها بما تحتاج إليه من عتاد ، ومن مسيرة ، وذخيرة ، ودواء .

ولكن أهو قدر مقدور علينا أن يذبح الواحد منا أخاه ، وأن نتنافس في الإبادة ، وأن نصبغ وجه العرب والإسلام بالدم ؟!

إن الأصوات العاقلة الحكيمة التي ارتفعت من بعض علماء الشيعة في لبنان ، تستطيع بالتضامن مع جهود كل الذين يرفضون المذابح ، ويتحرون الرشد ، وتتعذب ضمائرهم الحية من سطوة المظالم .. هؤلاء جميعاً يستطيعون أن ينقذوا شرف الإسلام والعروبة من وصمة العار !! لكيلا ترتبط العروبة والإسلام ، بالقتل أو التدمير

أو الطغيان أو الهوان !! ولكى يدرك المسلمون فى كل مكان أن أهل الكتاب من مواطنيهم ، إنما هم فى ذمتهم ، أى فى عهدهم وحمايتهم ، وتحت ظل ظليل من صدق المودة ، وحسن الرعاية ، وسمو الأخوة .

إننا لم نفقد الأمل بعد فى أن يسلك إخواننا الشيعة فى لبنان سلوكاً يليق بهم .. سلوكاً إنسانياً متحضراً ينبع من نبالة العقيدة الإسلامية ، عسى أن يستوحوا تاريخ أسلافهم العظام وتقاليدهم النبيلة فى حماية الحق ، والعدل وكرامة الإنسان ..

ونحن لم نفقد الأمل بعد فى أن الأخوة من شيعة إيران ، سيفيئون إلى حكم الله ، وهم يعرفونه ، ويستجيبون للحكمة ، ويلبون نداء السلام كما لبته العراق ، فيستنقذون سمعة الشيعة والإسلام ويصبحون جديرين حقاً بالانتماء إلى إمام المتقين ، وأبى الشهداء وإلى كل الذين جاهدوا من السلف عبر العصور ليصبح الناس بنعمة الله إخوانا .

١٩٨٧/٣/٢٥

بعض ذكريات أدبية ..!

تأثرت الثقافة العربية بالمعارك الأدبية عبر عصورها المختلفة ، ولعل أشهر تلك المعارك في الزمن القديم : نقائض الشاعرين جرير والفرزدق .. وكان معظمها تفاخرا ، أو تبادل الذم والهجاء .. أما المعارك الأدبية المعاصرة والحديثة ، فكانت حول قضايا أدبية ، وهي إن لم تخل من أبعاد وهموم وعناصر شخصية غير أنها تناولت كثيرا من الأصول والنظريات العامة .

ولعل أشهر تلك المعارك ما دار بين العقاد والرافعي ، ولكنها كانت طاحنة قاسية . وحسبنا أن نذكر أن الرافعي كتب مقالاته التي صاول بها العقاد تحت عنوان «على السفود » .. وهو ما يشوى عليه اللحم !! .. فلنتصور أي مقاولات نارية كانت !! ولقد كان من أمتع تلك المعارك الأدبية ما دار بين طه حسين والمازني .. فقد كان كل منهما يسوق في مصاولة صاحبه معارف تفيد القراء .. وكانت لكل منهما سخريته العذبة » من غير مرارة أو تجريح أو إسفاف ، ولكننا على الرغم من ذلك كنا نشعر بغير قليل من الحزن ، لأننا نحب الكاتبين معا ، ونقرأ لهما بذات القدر من الإكبار ونتمنى أن يشيع بينهما الود ! .. وكان لكل منهما أسلوبه الأخاذ ، في أسلوب المازني رشاقة وترسل ، وفي أسلوب طه حسين فحولة وانسياب .،. وكنا نشعر أن أسلوبه نتاج القرآن الكريم بإعجازه البياني متزاوجا بعظمة المعمار الموسيقي الكلاسيكي ، وبمعطيات الثقافة اليونانية والفرنسية والتراث العربي ، من كل أولئك تكون لأسلوب طه حسين خصائص مميزة .. فهو يخفق بأنغام ذات شجن ، ويضيء بنصاعة البيان العربي .. وهو أسلوب كثر مقلدوه ، وقل حاذقوه ، فلم يحلق إلى آفاقه أحد من المقلدين .

أما المازنى فقد كان أسلوبه هو السهل الممتنع ، وهو شديد الصفاء ، يترقرق وهو ينساب إلى العقل والقلب معا ، تتألف كلماته الدقيقة المختارة بعناية صائغ ماهر ، وكان مولعا برسم صور يستلهمها مما يضطرب حوله فى الحياة المصرية .. وكان تأثره بالأدب الإنجليزى واضحا فى طريقة تعبيره ، وفى فنون هذا التعبير ، وهو يسوق الجمل القصيرة التى تشبه القضايا المنطقية ، وكانت كتاباته فى الأغانى .. لأبى الفرج الأصفهانى من روعة التراكيب اللغوية ، ومن فحولة التعبير فى سلاسة ويسر ، يخالج هذا كله ثراء عظيم من تجارب الحياة وصور الواقع ، والصياغات الشعبية المصرية ، مضافا إلى ذلك روعة الأدب الإنجليزى ، وبصفة خاصة الشعر الرومانسى ، بانفساح خياله ، واقتحامه الخفاء ، وأنغامه الشجية المهموسة .. وكان للمازنى ولع باستعمال بعض الكلمات العامية الشائعة ، وهى من الفصحى .

وكان كلا الكاتبين يكتب المقال الأدبى والسياسى والرواية ، ويمارس النقد ، ويكابد الترجمة .. طه حسين عن اليونانية والفرنسية ، والمازنى عن الإنجليزية .. وقد اشتهر المازنى بأنه من أسرع وأدق من يترجم عن الإنجليزية ، حتى لقد كان يتحرى أن يصوغ ما يترجمه بأسلوب يحاكى ويلائم أسلوب الكاتب المترجم له .. من أجل ذلك كنا حين نقرأ ما ترجمه من قصص عن الإنجليزية ، نشعر بشخصية كل كاتب .. وتميزه وكان المازنى غزير الإنتاج ، ألزم نفسه كتابة مقالين يوميين : واحد فى صحيفة صباحية ، والثانى فى صحيفة مسائية ..

وقد بلغت حدة المعارك بين العملاقين إلى المدى الذى كان يدفع كل طرف منهما إلى ذم ما يمدحه الآخر ، مدح ما يذمه ، وعلى الرغم من ذلك فلم يتورط أحدهما فى تجريح صاحبه !!

ولقد أذكر أن طه حسين رحب بظهور عزيز أباظة حين نشر أول ديوان له ، وكان فى ذلك الوقت مديرا «أى محافظا» .. ثم قدم عزيز أباظه رائعته «قيس ولبنى» ، وهى أول مسرحية شعرية عربية يقدمها المسرح بعد مسرحيات شوقى ، وبعد توقف طويل .. ولم تكد المسرحية تظهر حتى حياها طه حسين فى حماسة وسرور .

معركة عزيز أباظة :

وكان ترحيب طه حسين بإنتاج عزيز أباظة وحماسته له كافيا لكي ينبرى المازنى ليناقض طه حسين .. وفى الحق أن المازنى لم يجد ما يعيب الديوان أو المسرحية ، ولكنه هاجم ما كتبه طه حسين عنهما .. وكان العقاد قد كتب تحية لمسرحية «قيس ولبنى» وهي مسرحية هزت الحياة الثقافية بعد ركود ، وخفقت لها قلوبنا بغته ، وأشرقت بروعتها النفوس ، إذ تطلعنا إلى مقدم أيام مجيدة للثقافة ، أجمل من الأيام التى مضت .. أيام باهرة من المتاع الفكرى والفنى .. ولقد شاهدت تلك المسرحية مالا أذكر من المرات على خشبة مسرح دار الأوبرا الذى أنشأه إسماعيل باشا فى العقد الإقطاعى ، واحترق فى العقد الاشتراكى الثورى !! ولم يعرف أحد حتى اليوم من الذى أشعل فيه النار ، ولا كيف أو لماذا اشتعلت فيه النار !!

وعلى الرغم من أن العقاد أحسن استقبال ظهور عزيز أباظه ، ورحب بمسرحيته الأولى ، وأثنى عليها أكثر مما فعل طه حسين .. فما فكر المازنى فى أن يرد على العقاد ، أو يخالف من رأيه في المسرحية أو ثنائه على عزيز أباظه .. ولكنه كتب مقالا شديدا ردا على ما كتبه طه حسين تقديرا للشاعر وشعره ومسرحه ، فسخر بما كتبه طه حسين ، ووصفه : بأنه كلام لا رأس له ولا ذنب !!

وفى الحق أن كلام طه حسين كان كلاما رائع الوضوح ، بالغ الروعة ، عبر فيه عما اختلجنا نحن به حين قرأنا «قيس ولبنى» وحين شاهدناها .. وكنت أحد الذين شعروا بالألم لما كتبه المازنى عن طه حسين ، وعجبت أنه لم يسخر بما كتبه العقاد الذى ذهب إلى مدى أبعد من طه حسين فى الثناء على المسرحية .. وتمنيت ألا يرد طه حسين ، ، ولكنى اصبحت وامسيت ، فإذا الجريدة المسائية التى نشرت هجوم المازنى على طه حسين ، تنشر له ردا عنيفا ، يحمل اتهاما للمازنى بانه أحد الذى لايعملون ، ويؤذيهم أن يعمل الآخرون !! .. وكان أستاذنا الدكتور طه قد كتب كلاما كهذا فى إهداء أحد كتبه الذى ينطق بما عاناه من مشقة وجهد فى تأليفه .. ولم يكن هذا هو الإتهام الوحيد الذى وجهه طه حسين للمازنى ، فقد اتهمه بأنه ينفس عليه ، وبأنه

مغيظ كظيم لأن عزيز أباظه لم يطلب منه أن يقدم كتابه ، بل اتجه إلى طه حسين .. ثم قال عن المازنى : إنه لو كان هو الذى كتب المقدمة ، لكان كلامه إذن له رأس كل الرأس ، وذنب كل الذنب !!

ومن عجب أننا كنا نقرأ هذه النقائض بين كتابنا ، فلا ننحاز لأحد منهم ، ولقد نرفض أن نصدق ما يقوله كل واحد منهم عن صاحبه ، ونحتفظ بالقدرة على الإعجاب بهم جميعا !!

ولكن كان هناك دائما مجادلات بين أبناء جيلنا ، حول من نقرأ لهم . أو نقدر من أهل الأدب والفن والآداء .

وكما أصبح الناس يتشاجرون اليوم فى تعصبهم لهذا النادى أو ذاك من أندية كرة القدم كنا نتحاور ولانتشاجر حول هذا العلم من الأعلام أو ذلك .

محاورات لا مشاجرات :

كانت محاوراتنا تدور حول المفاضلة بين كل من : شوقى وحافظ .. طه حسين والعقاد .. الشيخ رفعت والشيخ الشعشاعى .. أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب ، والريحانى والكسار ، وجورج أبيض ويوسف وهبى وعباس فارس .. فاطمة رشدى وزينب صدقى وأمينة رزق .. حسين رياض وأحمد علام .. وهكذا كان التحاور يضم أسماء عدد كبير من أصحاب الفكر ومبدعى الأدب مثل د. محمد حسين هيكل «رحمه الله» ومنصور فهمى ، والزيات ، يعقوب صروف ، ومصطفى صادق الرافعى ، وسلامة موسى « رحمهم الله جميعا » ولقد تمتد محاوراتنا إلى تاريخ الأدب العربى لنوازن ولنفاضل بين المتنبى وأبى العلاء .. البحترى وأبى تمام .. الجاحظ والأصفهانى .. عبد الحميد الكاتب وابن العميد .. أبى العتاهية وأبى نواس .. وكنا أحيانا نفاضل بين يوربيدز ، وسوفوكليس .. راسين وكورنى وشكسبير .. غيرهم وغيرهم .. وكنا حينئذ طلابا فى المدارس الثانوية .. ولا ريب أن هؤلاء الذين أثرت بهم الثقافة العربية والعالمية غرباء على طلاب المدارس الثانوية

اليوم !! فهم لايعرفون إلا أسماء أخرى ، من كبار موظفى وزارة التربية ، وأصدقائهم ! .. وقد أصبح طلابنا فى هذا الزمان الأغبر يجرعون على الرغم منهم نماذج رديئة من الأدب العربى ، فى كتب فرضتها جماعات المنتفعين ، من أنصاف الجهلاء وأنصاف المغرضين !! .. ولو أن أحدا راجع ما يجرعه طلابنا عن تاريخ المسرح الشعرى ، وعن الشعر الحديث ، لوجد حشدا من الأكاذيب والزيف أشد هولا ودناءة وفحشا ، وأكثر إثما مما يتجرعه طلابنا مرغمين حين يدرسون تاريخهم الحديث والمعاصر !!

انقذوا طلابنا !!

ولو أن أحدا من المسئولين عن التربية والثقافة اهتم بما يدرسه الطلاب من مختارات الأدب العربى لوجد كلاما فى غاية الرداءة والرذالة والضحالة وفساد الذوق !!

إن مثل هذا الكلام الغث المقرر على طلابنا ، لحرى بأن يقيم سدا بين الطلاب وبين اللغة العربية وآدابها ، ثم إنه بعد مفسدة للعقل ومقبرة للذوق ! .. ولعله مما يثير الضحك أكثر مما يثير الأسى أن وزيرا سابقا للتربية والتعليم قرر خطبة على الطلاب ليحفظوها ، على الرغم من أن كل مصرى يعلم أن ذلك الوزير لم يكن له أدنى علاقة أو حتى شبهة علاقة بالثقافة أو الأدب ، ولعل بعض منافقيه هم الذين فرضوا خطبه على مقررات النصوص الأدبية .. لقد أجمع الذين يعذبهم انهيار لغتنا العظيمة أنه ما من سبيل لحماية لغتنا إلا تغيير تلك الكتب المزيفة ، وتقديم النصوص الجيدة إلي الطلاب ..وليس الأمر فى حاجة إلي اجتهاد أو عناء .. ففى زمن النهضة الثقافية ألف عدد من كبار الأساتذة والأدباء كتابين عن تاريخ الأدب العربى عبر عصوره المختلفة ، وكتابا فيه مختارات من روائع الإبداع من شعر ونثر فنى عبر عصور التاريخ الأدبى .. واللجنة التى صنفت الكتب الثلاثة كانت من الدكتور طه حسين ، والأستاذ السكندرى والأستاذ أحمد أمين والدكتور أحمد ضيف ، وغيرهم من كبار الأدباء والأساتذة .. وقد تربى جيلنا على كتبها : المجمل فى تاريخ الأدب العربى ، والمفصل والمنتخب من الشعر والنثر .

الجريمة المستمرة :

ولقد أرى أن تلك اللجنة برياسة الدكتور طه حسين ، أعلم وأفقه وأبصر وأدرى بتاريخ الأدب العربى والإنتاج الأدبى عبر العصور من تلك اللجان من موظفى الوزارة وأصدقائهم ، أو من أهل الانحياز والتعصب أنصاف الجهلاء ! وما يجمل بنا الصمت بعد على تدمير معارف طلابنا ، ولا على إفساد أذواقهم وعقولهم أو على تجريعهم الأباطيل ، وتدمير ملكات الإبداع فيهم !

وإذن فلتعيدوا تقرير كتاب المجمل والمفصل والمنتخب ، ولتؤلفوا لجنة يشرف عليها المجلس الأعلى للثقافة واتحاد الكتاب باشتراك ممثل لوزارة التربية من علماء التربية ، ومن أهل الذكر ، وممن عرفوا بالنزاهة والعدل وعمق النظر ، فلتصنف هذه اللجنة تاريخ الأدب العربى الحديث ولتختر أمثالا صالحة من الإبداع الجديد فى تنزه وموضوعية ، وبلا مجاملة ولا أهواء !! فليقم على هذه المهمة أهل الخبرة والعلم ، وأصحاب التذوق والذوق من أصحاء القلوب والنفوس والعقول ، لا من أصحاب المصالح الخاصة الضيقة .. ولا من أنصاف المثقفين أو سفلتهم من الذين أسودت نفوسهم بالحقد فى إحساسهم المرير بالعجز عن الإبداع ، ولا الذين فى قلوبهم مرض !!

لم يعد من المقبول بعد أن نسكت على تخريب عقول الطلاب والتلاميذ ، ولا على إفساد أذواقهم .. فالصمت على تلك الكتب الكاذبة المزيفة الغثة الهابطة إنما هو جريمة مستمرة ، ووزير التربية الجديد الأستاذ أحمد فتحى سرور ، واحد من أبرز أساتذة وعلماء القانون الجنائى ، فالأمل العام معلق بسرعة مبادرته بالقضاء على تلك الجريمة المستمرة ، واستنقاذ فكر الشبيبة والذوق العام من الجناة : فاعلين أصليين وشركاء .

أعلم الناس بالعربية :

وقد كنت أتحدث إلى الدكتور طه حسين عما غشى اللغة العربية فى مدارسنا من الدواهى والنكبات ، فشعرت بألمه العميق ، ثم رأيت فرحا يضىء قسمات وجهه عندما قلت له أنى سأكتب عن هذه الغاشية لأطالب بإعادة تقرير المجمل والمفصل والمنتخب ،

ولإعادة تأهيل مدرسى اللغة العربية ، ليصبح من ذلك النسق العظيم الذى خرجته مدرسة دار العلوم العليا ، قبل أن تصبح كلية جامعية ، وقبل أن تدركها محنة التنسيق ، فتزدحم بمن لم يوفقوا فى الحصول على مجاميع مرتفعة في الثانوية العامة ، ممن لا يريدونها ، ولا تريدهم ، وإنما اضطرهم إليها التنسيق ، وقهرها بهم !! قلت لأستاذنا : أما من معهد عال للغة العربية يعيد إليها رونقها وبهاءها ويحميها كتلك المدرسة العليا التى قيل فيها ذات يوم : إذا أردت أن تعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا ، فهى تموت فى كل مكان ، وتحيا فى دار العلوم .. وأطرق أستاذنا قليلا ثم قال لى أنه كان يرجو أن ينهض قسم اللغة العربية بكلية الآداب بهذا الدور . ثم أضاف أنه من أجل ذلك أباح الالتحاق به لخريجى ثانوية الأزهر ، ولكن التجربة خيبت آماله !! فكلية الآداب قد تخرج دارسا ملما بالأدب العربى ومحباً له ، ولكنها لا تستطيع أن تخرج معلما للغة العربية كما يجب أن يكون المعلم .

ولما سألته عن الحل .. قال أنه لا مندوحة عن العودة بدار العلوم لما كانت عليه قبل التنسيق بحيث لا يدخلها إلا الراغبون فيها ، ولا تقبل إلا من تريدهم وتستطيع أن تعدهم إعدادا حسنا ليعلموا اللغة العربية !!

وسكت قليلا ثم سألنى : أتعرف من هو أعلم الناس باللغة العربية فى عصرنا ؟ وأخذت أفكر ، فأنا لا أعرف من هو أعلم الناس باللغة من طه حسين ، وما من أحد مثله طوعها وأغناها ولا استثار أنغامها وموسيقاها .

وبعد هنيهة تساءلت : أهو المازنى ؟! .. فقال ضاحكا : إن المازنى عليم باللغة حقا وفى أسلوبه عمق ورشاقة .. وأدهشتنى هذه الشهادة عن رجل ألف أن يهاجمه ! .. ثم استطرد أستاذنا الدكتور طه حسين قائلا : إنه يحب أن يقرأ للمازنى ، ولكنه ليس أعلم الناس بالعربية وآدابها فى زماننا هذا .. وبهرنى هذا الموقف ، وتمنيت ألا يؤدى اختلاف الرأى بين أبناء المهنة إلى إنكار كل منهم لمخالفيه .. وبعد صمت قليل فاجأنى طه حسين بقوله : إنه شيخ أزهرى عليم بالفقه والشريعة ، خبير بعلوم القرآن والحديث ، شديد التواضع ، لا يشعر بأنه أعلم أهل زماننا باللغة العربية وآدابها ، ولكى أيسر عليك الإجابة أقول إنه كان شيخا للأزهر ..

ووثب إلي ذهني اسم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وتراءت لي صورته بكل جلاله ، وهيبته ، وتواضعه ، وبوجهه الباسم المضيء بالتقوى ، وصوته الهادئ النابض بالثقة والإيمان ، وكأنما هو بقية من السلف الصالح ، أو كأنه انفلت إلي عصرنا من زمن الصحابة والتابعين العظام !!

وكنت قد درست عليه الفلسفة الإسلامية على مدى سنوات أربع ، مع طلبة الدراسات العليا بكلية الآداب بالقاهرة وكان يعرفهم جميعا ويعرف أني ضيف عليه ، ولقد تعود في بداية كل محاضرة أن يسأل طلابه عن أحوالهم – وكانوا ثمانية – ثم يرحب بي ضيفا عليه .. وكانت كتابات مصطفى عبد الرازق كمحاضراته تمتاز بالدقة والذوق المصفى ، وحسن اختيار اللفظ بقدر المعنى ، وبعذوبة خفية في السبك .. وكان عليما بالفلسفة واللغة ، والفقه والشريعة والأدب .. وكان أحيانا ينقد المسرح ، قبل أن يتسلل إلي النقد الإبتزاز ، وبعض أنصاف الجهلاء وبغايا الأقلام والأجسام !! ومن روائع النقد الفني ما كتبه الشيخ نقدا لمسرحية «أهل الكهف» لأستاذنا توفيق الحكيم .. وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق يحمل شهادة دكتوراه الدولة من جامعة السوربون ، وهي أعلى درجة علمية في العالم ، وكانت تتيح لحاملها حينئذ أن يدرس في جامعات فرنسا ، ولم يكن في مصر من يحمل هذه الدرجة العالية إلا أربعة أو خمسة منهم طه حسين .. وكان الشيخ مصطفى يحمل لقب باشا ، وهي رتبه تشرئب إليها قلوب كبار الرجال ، وتحنوا لها الرؤوس !! ولكن الدكتور مصطفى عبد الرازق باشا نزل عن لقب الدكتور ، والباشا ليحتفظ بلقب الشيخ معتزاً به حريصا عليه .. وما كان لقب ما ليزينه فقد كان هو زينة للألقاب ، وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله يعين سرا ، فقراء طلابه فيؤدي عنهم مصاريف الكلية ، ويوهمهم – لكي لا يجرحهم – أنه حصل لهم على المجانية !!

أما الذين يتوسم فيهم النبوغ مع رقة الحال ، فلربما أمدهم بما لم يسألوه من المال ، فضلا عن تحمله عنهم مصاريف الدراسة وتزويدهم بالكتب والمراجع .. وقد اختير الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للأزهر ، فنصحه صديقه عبد العزيز فهمي «باشا»

شيخ القانونيين ، ألا يقبل ، خشية ما عسى أن يلقاه من كيد الشانئين وشنآن الحاسدين وحسد النافسين والمنافسين ، ولكن الشيخ الجليل كان قد قبل ولقد صح ما حذره منه شيخ القانونيين فلم يطق الشيخ الصالح فى ورعه وعفته ما أنزله به بعض منافسيه وشانئيه وحاسديه من كيد ومكر ، وعذاب غليظ وانهارت صحته فجأة ، ثم اختاره الله إلي جواره ، وقد خلف ميراثا فكريا قليل العدد كثير المدد عظيم القيمة ، نادر المثال .. وخلف فيما خلف حسرات لاتفارق مهج عارفيه ، ومحبيه وقارئيه ، والمنتفعين بعلمه الزاخر ، وفضله العميم .

عصرنا وعصره :

عاد أستاذنا طه حسين يسألني : عن شيخ أزهرى هو أعلم أهل زماننا باللغة العربية وآدابها .. من هو هذا الشيخ ؟ ! ليت شعرى من يكون / ! دهمتنى الحيرة حقا ؟

ولم يكن أستاذنا طه حسين - لحسن حظه - قد ابتلى ، كما ابتلينا من بعده - بأشياخ أزهريين ممن يحفظون القرآن - يلحنون فى اللغة العربية - حتى فى القرآن كما تلحن أكثر مذيعات التليفزيون اللائى لا يعنين بتثقيف عقولهن وتهذيب أذواقهن وإصلاح ألسنتهن وإيضاح نطقهن !! عنايتهن بإظهار زينتهن وهذا كله مستقبح منهن .. ووأسفا على اللغة العربية ! فهؤلاء الشيوخ الذين يلحنون فيها هم من الوعاظ والدعاة والمحدثين فى الإذاعة والتليفزيون ، وبخاصة فى إذاعة القرآن الكريم ، ومنهم من تولى مناصب دينية عليا ، ثم تخصص الآن في الافتاء بتحليل المحرمات لبعض المصارف العربية ، ليصبح كالمفتى الماجن لاتقبل شهادته ! هؤلاء يلحنون فى اللغة كالجاهلات من مذيعات التليفزيون . وكالجوارى الأعجميات الحسان فى عصور الفتح الإسلامى . ، فكان اللحن يستملح - ولا يستقبح - منهن ، ويثير لذة وضحكات ملاكهن من الفاتحين العرب !! غير أن من يلحن اليوم حرائر ، ما كان طه حسين قد ابتلى كما ابتلينا من بعده بأخطاء فاحشة فى قواعد اللغة العربية يتورط فيها بلامبالاة . جل وأكاد أقول القيادات السياسية الجديدة وأكثر أعضاء مجلسى الشعب

والشورى ، مما يمثل عدوانا ضاريا ومتصلا على لغتنا العربية المعذبة بأبنائها ! وهذا كله يستحيل تصور حدوثه لأية لغة حية أخرى من لغاتنا المعاصرة !! أيمكن أن يتخيل أحد أن يخطىء فى لغته مذيع أجنبى أو مذيعة مهما يكن من اهتمامها بجمالها وزينتها ؟؟ أو واعظ فى معبد أو برلمانى أو زعيم سياسى أو حتى طالب فى مدرسة ؟! لقد كان الإنجليز والفرنسيون من المدرسين فى مدارسنا يعاقبون من يخطىء منا فى قواعد اللغة أشد عقاب ، ربما يحرمانه من الدرجة كلها !! .. فما خطب مدرسى اللغة العربية اليوم ؟! لعل بعضهم أولى من تلاميذه بالعقاب الشديد وبالحرمان من الدرجة !!

الشيخ المقصود :

أجل ... لم يبتل طه حسين بما ابتلينا به من سلطان الضلالات ، وشيوع الأباطيل ، ولا بانهيار اللغة العربية على ألسنة الذين يفترض فيهم النهوض بها !! لقد رحمه الله فلم يمتحنه بألوان العذاب ولا البلوى التى نكابدها فى زماننا هذا الأغبر ، ولا فى أيامنا هذه الزرقاء بلياليها العجاف !!

لما طال بى الصمت أمام سؤال أستاذنا العزيز قال لى فى صوته العميق الهادىء المطمئن ، ذى الخفقات الموسيقية ، وكأنه يلقى على درسا : «أعلم إذن إن لم تكن تعلم أن أدرى أهل زماننا باللغة العربية هو شيخ الأزهر السابق الشيخ إبراهيم حمروش .. ثم أضاف أنه صديقه وجاره فى مجمع اللغة العربية ، وأن المجمعيين كلهم يجمعون على امتيازه وتفوقه فى اللغة العربية وآدابها على أن العصر لا يعرف مثله .

وتذكرت الشيخ إبراهيم حمروش . كان من قبل عميدا للغة العربية وهو طليعة العلماء المجاهدين ، وعندما كان شيخا للأزهر ، كان يسمى شيخ الإسلام ، كان يتبارك مسلمو إفريقيا وآسيا بمسح أطراف جبته وعباءته ولقد احتفظ بتواضعه الجم ، على الرغم من أنه كان يهز مسبحة التقوى بإحدى يديه ، ويده الأخرى تهز عروش الأباطرة والملوك ، حتى لتتهاوى !! ذلك أنه عندما انفجرت المقاومة الشعبية فى مصر ضد قوات الاحتلال البريطانى المؤيدة بعرش مصر وبالطبقات الرجعية والنفعية فيها ، أفتى بعض المرتزقة من محترفى الدين بأن الإسلام يفرض على المصريين مهادنة قوات

الاحتلال !! وقد منى الإسلام منذ انتهى عصر النبوة والخلافة الراشدة بكارثة .. هم أولئك المرتزقة و المضللون المنتفعون بالدين !! فانبرى الإمام الأكبر شيخ الإسلام وشيخ الأزهر ، الشيخ إبراهيم حمروش ، وأفتى بأن جهاد قوات الاحتلال فرض على كل مصرى ، وأن المصريين مطالبون شرعا بأن ينفروا أفرادا وجماعات أو لينفروا جميعا ، ليقاتلوا قوات الاحتلال فقد « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » .. واستنفر المصريين أن يقاتلوا محتليهم العادين عليهم ، يعذبهم الله بأيديهم يذهب غيظ قلوبهم ، ويشفى صدور قوم مؤمنين .. واستخرج الشيخ كل نصوص آيات الجهاد من القرآن الكريم ، وذهب فى تفسيرها إلى أنه أيما مصرى لقى جنديا من محتلى أرض مصر ، فقد أحل الله لهذا المصرى قتل المعتدى .

وقامت القيامة على الشيخ ، اهتز العرش البريطانى والعرش المصرى معا ، ونشرت الصحف البريطانية تصريحات شيخ الإسلام فى صفحاتها الأولى مستنكرة آراءه تلك ، مطالبة بعزله .. وعزل الشيخ عن منصبه الرسمى بعد حين ، ولكنه ظل فى قلوب الأزهريين شيخا للأزهر ، وإماما أكبر عاش فى وجدان المسلمين جميعا شيخا للإسلام ، يذكرهم بنضارة العصور الإسلامية الزاهرة وبجسارة الفقهاء والعلماء الأوائل ، الذين أضاءوا بشعلة الإيمان ما حولهم ، لأنهم لم يخافوا فى الحق لومة لائم ولم يخشوا إلا الله ولأنهم نصبوا من شرف مواقفهم لواء للحرية ، ومنارات على طريق الحق .

ولقد صحبنى إلى الشيخ إبراهيم حمروش الصديق العزيز أحمد حمروش ، وهو ابن عمه ، لأحصل منه على رسالة إلى مؤتمر لحماية السلام ، كان سيعقد بعد أيام فى بيروت عندما كانت لبنان واحة للحرية والخير والجمال ، وقبل أن يتحول فيها الإنسان إلى صياد وفريسة ، ومرتهن ورهينة !! وقبل أن تتحول ربوعها الجميلة إلى مستنقعات من الدماء تسبح على وجهها أشلاء الشهداء ، من الأبرياء والمستضعفين من الأطفال والرجال والنساء ، وقبل أن يباح فيها ويحلل أكل لحم الإنسان .

زرنا الشيخ فى بيت صغير جميل يحمل طابعا إسلاميا مصريا خالصا ، من تلك الثروة المعمارية التى بددها وخربها المخربون من هواة العمارات القبيحة ذات الأدوار

العالية المتتالية الرتيبة المقبضة من الخرسانة المسلحة .. ان بيت الشيخ فى حى القلعة بجوار مسجد السلطان حسن ، فخر العمارة الإسلامية الذى نجا بمعجزة من المخربين ! وكان للبيت فناء فسيح يثير الشعور بالراحة ، تستقبلك منه وأنت تفضى إلى قاعة استقبال الضيوف «المضيفة» خضرة تسعدك ، وشذا الزهر ، وهمسات السكينة ، وشىء كالطمأنينة الورعة !!

واستقبلنا الشيخ فى بشاشة وألفة وكأننى أعرفه منذ زمن !! نعم لقد عرفت هذا المثال الرائع لعالم الدين فى الصفحات النورانية من تاريخنا .. وسألته رسالة إلى مؤتمر السلام ، ورأيت ألا أكتمه أن هذا المؤتمر متهم بالشيوعية ، وأن دعوة السلام بأسرها تآمر ككل دعوة لإنقاذ العالم من مخاطر الحرب ومن الدمار النووى والذرى تتهم بأنها دعوة شيوعية !!

وابتسم الشيخ فى وقار هادىء واجال نظراته فى وجوه جلسائه وصحابه من علماء الدين ، والتمعت عيناه ببريق خاطف ، وأبدى استنكاره لتلك المزاعم .. وقال بل إن السلام هو دعوة الإسلام وأخذ يسوق الآيات فى تدفق دعما لرأيه .. ثم انتهى إلى أن الله تعالى جعل السلام من أسمائه الحسنى !! وتذكرت الليث بن سعد الذى عاش غير بعيد من هذا المكان منذ قرون يفيض على الناس حكمة وعلما .. لكم كانت كلمات الشيخ حمروش تنساب إلى الأذن لتعانق القلب بكل صدقها وحرارتها ونبالتها .. بهرنى كلامه بما فيه من عمق التفكير وسعة المعرفة ودقة النظرة ، وخبرة الحاذق بكنوز لغتنا وآدابها والقدرة على حسن استعمالها لتصبح ذات قدرة محركة وموحية .

وعندما حملت كلماته إلى المجتمعين فى بيروت استقبلوها استقبالا كريما وعظيما .. ورأيت الاجتماع حفيا بها .. كما لم يحدث مع أية كلمات قيمة أخرى !! يا للذكريات من لنا الآن برجال مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ إبراهيم حمروش ، ونحن نخوض فى هذا الليل الداجى مستعصمين بوهج الإيمان وجسارة الصدق واليقين؟!!!

١٩٨٧/٤/١

الثقافة والمصير

هل جاء الزمن الذى يجب فيه على المثقف أن يبرر انشغاله بالثقافة واهتمامه بالدفاع عنها ؟! .

وإلا فما بال بعض الرجال والنساء يحسب أن الكتابة عن الثقافة نجاة بالقلم من الخوض فى غمرات السياسة ؟!

ولكننا لا نكتب فى الثقافة تحرجاً من أى أمر ، وما عالجناها لاعبين !

ذلك أن الثقافة وحدها هى التى تبنى الإنسان الحر الذى يعرف حقوقه وواجباته السياسية ليستطيع أن يدفع عجلة الحياة .

ويؤدى دوره فى التقدم ويجعل هذه الدنيا أفضل مما هى جديرة بأن يعيشها الإنسان .

ذلك أن الثقافة هى التى تؤهل الإنسان لأن يهدم العالم الفاسد ليقيم بدلاً منه عالماً أفضل وأكثر نقاء .

والثقافة بعد ... هى التى تصوغ ذوق الأمة ، وتشكل طريقة حياتها وأسلوبها فى الفهم والتفكير ، وتمنحها القدرة على التعامل الواعى مع الحاضر ، وعلى مواجهة ما يطرحه المستقبل من مشكلات .

دور الثقافة إذن أخطر مما يتصوره بعض القائمين عليها أو ممن يحاولون أن يقمعوها أو يشوهوها ويفسدوا الذوق العام ، أو ممن يحاولون أن يمسوا نورها ويلقوا التراب على كل رائع وجليل فيها ..!

من الحق أن الثقافة متاع عقلى وروحى لا غنى عنه ، وهى غذاء يومى للوجدان ، ولكنها فوق هذا كله جو عام يتخفى فيه الشعب !

ووا رحمتا لشعب يحجب عنه الهواء النقى ، ليستنشق بدلا منه أبخرة الأقبية ، وغازات النفاية .

أى شىء يمكن أن ينجزه شعب كهذا .

إن الشعب المثقف الذى يملأ رئتيه بعبير الثقافة هو وحده الذى يستطيع أن يحقق التقدم ، وينطلق بلا قيود ، شامخاً ، ثابت الخطوات ، متحرر الطاقات ، ليحقق ما يريد ، وهو بإذن الله فعال لما يريد .

إن بناء الإنسان هو هدف الثقافة ، فالاهتمام بالثقافة وتحريرها من كل ما يفسدها أو يكبلها هو اهتمام بمصير الشعب ، وتحرير لهذا المصير نفسه .

وما من تنظيم للاقتصاد أو خطة للتنمية أو مشروع للتطور ، يمكن أن ينجح إلا بقدر حظ الشعب من الثقافة .

فهى التى توفر له القدرة على الاستيعاب وفهم ضرورات الحاضر والمستقبل ، وإدراك ما يحكمه من قوانين الطبيعة والحياة والتطور .

وليس بسلطان الدولة ولا بهيبة القوانين وحدها تحقق مشاريع التنمية أهدافها ، ولكن بما تضىء الثقافة من عقول تتفكر وتتدبر ، وبما تغنى به النفوس من قدرة على الحياة والعطاء .

وارتباط الثقافة بالتنمية والتقدم ليس اجتهاداً خاصاً ولكنه حقيقة موضوعية كشفت عنها الدراسات العميقة المستقصية ، وها هو ذات تقرير البنك الدولى عن ١٩٨١ يكشف عن سبب فشل خطط التنمية فى البلاد النامية .

فإذا السبب هو انحطاط المستوى الثقافى لشعوب تلك البلاد . وهذا الانحطاط الثقافى هو المسئول عن «الزيادة السكانية الطائشة التى تهدد العالم كله بالمجاعة» .. وقد عالج الأديب الأستاذ فتحى سلامة هذه القضية مشكوراً فى مقال نشرته الأهرام

يوم الأحد الماضى بعنوان «الثقافة والتنمية» وعرض لتقرير البنك الدولى عن ١٩٨١ وآراء علماء الاجتماع والمنظمات المتخصصة فى الأمم المتحدة ، وكلها تجمع على وجوب ضمان قدر من الثقافة الأساسية لشعوب الدول النامية .

لجميع الأفراد على اختلاف مستوياتهم حتى يمكنهم استيعاب خطط التنمية والتكيف معها ، وبهذا تستطيع الدول النامية أن تضع خططاً للتنمية وتنظيمات اقتصادية تحقق أهدافها ويتوافر لها ما ينبغى من النجاح !

ولكم أتمنى أن يعنى المؤتمر الاقتصادي المصرى بهذا الارتباط بين الثقافة والتنمية عندما يعقد دورته الثانية فى مايو القادم إن شاء الله ، لكى يمهد الأرض الصالحة للغراس ، فلا يحرث فى البحر !!

فإذا كانت الثقافة هى التى تشكل الذوق العام فى التعامل ، وإذا كانت هى التى تصوغ الفهم الصالح لحسن التناول وحذق المواجهة ، وإذا كانت هى أساس التقدم ، وضمان نجاح التنظيم الاقتصادى وخطط التنمية ، فالدفاع عن الثقافة هو إذن دفاع من مصير الوطن ، وهو مسئولية كل المواطنين ، لا المشتغلين بالثقافة وحدهم !

والثقافة تتكون من مجموع المعارف والقيم التى يحتويها التراث الحضارى والمأثورات الشعبية ومعطيات الفكر والفن .

ووسائل نشر الثقافة هى الكتاب والمسرح والسينما والفنون التشكيلية وقاعات الموسيقى والتليفزيون والإذاعة والندوات والمحاضرات والصحف والنشرات وكل وسائل الاتصال بالجماهير .

وقديماً كان للكلمة دور خطير ، وما زال للكلمة المكتوبة دورها ، ولكن هذا الدور يتضاءل كلما زاد عدد السكان وارتفع مع هذه الزيادة عدد الذين يجهلون القراءة والكتابة .

وفى زمن ما كانت القراءة هى أهم وسائل الثقافة ، ولكن الناس إلا قليلاً أصبحوا لا يجدون الوقت الكافى للقراءة لانشغالهم بأمور المعاش ومواجهة قسوة متطلبات

الحياة ، ولارتفاع ثمن الكتاب ، وإما لأن مشاهدة التليفزيون تستولى على معظم أوقات الفراغ ، حتى لقد تعود أفراد الأسرة أن يجلسوا أمام شاشة التليفزيون ، وينشغلوا بها ، جيداً كان ما تعرضه أم رديئاً ، وما عاد أفراد الأسرة يتحدثون إلى بعضهم البعض كما كان يحدث قديماً ، إلا إذا استطاعوا أن يتغلبوا على الرغبة فى مشاهدة التليفزيون .

على أن أخطر أسباب الانصراف عن القراءة ، هو عدم القدرة عليها .. أى عدم معرفة القراءة .

وإذاً ؛ فأول ما يجب أن نهتم به إنقاذا للثقافة ، ووصولا بها إلى كل العقول هو القضاء على الأمية .

نحن نعانى من نوعين من الأمية كلاهما شر من صاحبه : الأمية الناشئة عن الجهل بالقراءة والكتابة ثم أمية عدد من المتعلمين وفى بلد يكثر فيه عدد الأميين ، تصبح بعض أدوات نشر الثقافة الأخرى غير الكتاب أشد خطراً وأفدح مسئولية .

ومن هنا يتحدد دور التليفزيون لأنه أوسع هذه الوسائل الأخرى انتشاراً ، وأعمقها تأثيراً ، فهو يدخل البيوت بكل عوامل الجذب من صور وصوت وألوان .

ثم يأتى دور قاعات السينما والمسرح وسائر أدوات نشر الثقافة .

وهذا الترتيب هو ، ما استقرت عليه الإحصاءات والاستقصاءات العالمية .

على أن دور التليفزيون له خطره حتى فى البلاد التى لا تعانى الأمية ، وإن كان عظم هذا الدور يطرد مع ازدياد انتشار الأمية .

وكلنا يسلم بأن انتشار الأمية عار يجب ألا نسكت عليه ، ولكن الحكومات المتعاقبة لم تستطع القضاء على الأمية بل ارتفعت النسبة كلما زاد عدد السكان وأصبحت هناك أمية مقنعة ، هى أمية تلاميذ المدارس الابتدائية ، وكثير منهم يقضى العام أو الأعوام فى المدرسة فلا يحسن القراءة ولا الكتابة ، وهم مع ذلك لا يدخلون رسميا فى عداد الأميين .

إن محو الأمية بين الكبار ليس مسئولية الحكومة وحدها بل مسئولية كل الأحزاب والقوى السياسية كذلك .

وإذا كنا نعمل من أجل مواطن صالح يعرف حقه وواجبه ، فيجب علينا أول الأمر أن نعلم هذا المواطن كيف يقرأ ويكتب .

وقد قرأت عن تجارب بلاد نجحت فى محو الأمية بتخصيص مجندى المؤهلات لتلقى دروساً فى محو الأمية لعدة أشهر ، ثم تخصيص ما تبقى من مدة التجنيد لتعليم الكبار .

وهناك تجارب كثيرة فى بلاد تخلصت من الأمية منذ سنين ، ومن واجبنا أن نستفيد بهذه التجارب .

ومن واجب جميع القوى السياسية أن تقدم حلولها وعطاءها لإنقاذ الوطن من الأمية .

أما أمية الصغار فى المدارس الابتدائية فهى مسئولية وزارة التربية ولكنها تلقى العنت من تكدس الأعداد وعدم توافر الأماكن و المعلمين . وهى مشكلة قومية يجب أن يتعاون الجميع على حلها ، فلن تقوى جهود الوزارة مهما تبذل على أن تواجه التحدى وحدها .

ولا ريب أن عند الأحزاب والقوى السياسية حلولاً ، فتتقدم بها .. وقديما كانت المساجد منارات للعلم ، وما زال من الممكن أن تعمم فيها فصول تقوية لصغار التلاميذ ، يتعلمون فيها ما فاتهم تعلمه وسط فصول مكدسة أو فى غياب الأماكن الصالحة لتلقى العلم ، أو لنقص فى المدرسين ، ولعل من أ جمل ما حمله لنا تراثنا السياسى تلك المدارس المجانية التى أنشاها الحزب الوطنى على عهدى مصطفى كامل ومحمد فريد .. ورب يوم كانت فيه هذه المدارس أجدى للوطن من المدارس الحكومية .

أليس فى توجيه أصحاب المؤهلات المجندين إلى محو أمية الكبار أجدى على الوطن وعليهم من حشدهم فى ظروف مضنية سيئة يجترون السأم ، ويكابدون معاملة

تصدمهم ، وينمو فى قلوبهم السخط والرفض .. ماذا أقول بعد ؟ يضيق صدرى ولا ينطق لسانى !!

ثم ألا تستطيع الدولة أن تفرض على أصحاب الدخول الكبيرة - ومعظمهم حصل عليها بلا مقابل من عمل جاد - نوعاً من الضريبة تخصص لتمويل مشروعات محو الأمية !

لا مراء فى أن نجاح خطط التنمية مرتبطة بارتفاع مستوى ثقافة هذا الشعب ولا جدوى من أى جهد لنشر الثقافة ، ما لم يتعلم الأميون القراءة والكتابة وما لم يفطن الذين يعرفون القراءة والكتابة إلى أن الثقافة غذاء يومى للعقل والقلب ، وبدون الثقافة تظل على قلوب أقفالها .

أما غياب الثقافة عن بعض المتعلمين فعلاجه أول الأمر وآخر الأمر بأن يدركوا أن طريقهم إلى المعرفة هو إتقان أداة التعبير وهى اللغة العربية .. ووارحمتا للغة العربية مما تعانيه من اللحن وسوء النطق وفحش الأخطاء !! وهى جناية على اللغة العربية تشترك فيها أجهزة الإعلام فى كل بلادنا العربية بلا استثناء ولا يبرأ منها الخطباء والمتحدثون .. حتى بعض خطباء المساجد وما نعرف لغة يخطىء فيها أهلها كما نخطىء نحن العرب فى لغتنا .. ولقد أوشكت بعض حروفها أن تنطمس كالطاء والدال والتاء والضاد .. إلخ فهى على ألسنة بعض المذيعات تتحول - من باب الدلال - إلى حروف أخرى تختلط بالشين والجيم المعطشة .

والأمر لا يقتصر على الأخطاء الجسيمة فى النطق ولكنها تمتد إلى أخطاء أشد جسامة فى قواعد اللغة والتعبير ، وقديما قيل «يستحب اللحن من الجوارى» لأنهن كن غير عربيات وكن جوارى .. أما اليوم فما أقبح اللحن من الحرائر العربيات .

ثم هذا النقص فى المعارف العامة الذى نلمسه عند بعض المتعلمين .. ما علاجه ؟

العلاج بيد المرضى أنفسهم ولا يستطيع أحد أن يفيدهم .. فهم وحدهم المطالبون بأن يعلموا أنفسهم ، وبأن يأخذوا مأخذ الجد فى إتقان لغتهم ، وفى الأخذ من كل علم

وفن بطرف ، ليتكون لديهم قدر صالح من المعرفة .. قدر من المعرفة يجعلهم قادرين على فهم الحياة .. حد أدنى من الثقافة العامة يسمو بأذواقهم ويوسع مداركهم ، وأفاق عقولهم ولو أن لدى شعبنا ما يجب أن يتوافر له من الثقافة ، لما عانينا الارتفاع الرهيب فى عدد السكان وهو ما يهدد بالكارثة ذلك أن بعض الناس يتوهم أن تحديد النسل حرام ، وضد الدين ..

لو أن الحد الأدنى من الثقافة يملأ العقول والقلوب لعرف هؤلاء أن تحديد النسل جائز فى حالات .. وأنا هنا أنقل عن الإمام الغزالى وهو حجة الإسلام الذى لا خلاف حول مكانته وعلمه أفتى الإمام الغزالى بجواز منع الحمل فى حالات منها :

«استبقاء جمال المرأة وسمتها - استبقاء حياتها - الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب ودخول مداخل السوء» .

هكذا كتب الإمام الغزالى فى الجزء الثانى من كتابه القيم «إحياء علوم الدين» ولكن من ذا الذى ينشر هذه الثقافة بكل ألوانها .

ما دمنا نعانى الأمية وما دامت القراءة غير ميسورة لمعظم السكان ، فالعبء الأكبر إذن يقع على أجهزة النشر الأخرى كالتليفزيون والإذاعة والسينما والمسرح وما إلى ذلك .

ولكننا عندما نقول إن الرقابة على هذه الأجهزة تمنع كثيراً من الأعمال الجادة وتبيح ، ما عداها ، مما يفسد الذوق العام وتقول الرقابة أنها مقيدة بقوانين .. عجباً .. تسمح القوانين بأن يعرض على الناس فى بيوتهم وفى قاعات السينما وفى المسارح كل هذا الذى نعانيه .

ولكن فوق القانون قاعدة اسمها رعاية حسن الآداب والنظام العام وتطبيق هذه الرقابة إلى حماية الناس من كثير مما يعرض .

وإباحة الجاد الذى يرفض .

إن الثقافة الجادة ليست هى الثقافة المتجهمة .

وإلا فأين نضع أعمال أرسطوفان وموليير وكوميديات برناردشو وتوفيق الحكيم .. ثم كوميديات شكسبير .

إن ما يعرض على الناس وما يحجب عنهم مسئولية ضخمة ، يجب أن تتحرر من القيود المكتبية ، ومن ضيق الأفق ، ومن جهل بعض الرقباء أو من إشفاقهم على أنفسهم من الحساب الإدارى .. يجب أن يمارس الرقباء أعمالهم متحررين من كل العقد ، فبعضهم يأخذ بالأحوط ويمنع الجاد ويبيح الغث !

وما من أحد يحاسبه على إباحة ما هو غث .

كانت الأعمال الفنية مزدهرة ، وكانت تصوغ ذوقاً رفيعا للمشاهدين ، عندما كان يتولى الرقابة مثقفون كبار يدركون مسئولياتهم أمام الجماهير فلنذكر أيام كان ينهض بالعبء يحيى حقي ونجيب محفوظ ومصطفى درويش واعتدال ممتاز وعبد الرحمن صدقي وآخرون من مثقفينا أدركوا أن حجب الأعمال الجادة وإباحة غيرها كالكثير مما يعرض الآن - إنما هو ظلم مبين لهذا الشعب !

إن ضمير الرقيب يجب أن يكون كضمير القاضى ، بل إن خطأ الرقيب أفدح لأنه يمس مصالح الكافة لا مصلحة فرد .

إن النهوض بالثقافة وتعميمها يقتضى النهوض بأدوات نشر هذه الثقافة وعلاج ما تعانيه من أمراض .

ولعل من هذه الأمراض تلك العقلية التى تحكم تصرفات بعض الرقباء .

والتعميم ظلم ، فمن الرقباء من يتمتع بالحكمة ويقظة الضمير والفكر المستنير ، وإدراك المسئولية ، ولكن القرار النهائى فيما يعرض وما لا يعرض ليس لها دائماً .

على أن الرقابة مسئولية رؤساء الأجهزة ، ويجب أن يكون لهم منها موقف أكثر حسماً .

فليدرسوا ما تمنعه الرقابة ويقارنوه بما تبيحه ، سيجدون أن مسئوليتهم أمام الشعب تفرض عليهم أن يعلموا الكثير .

إن الذين يحرمون الشعب من حقه فى الثقافة الجادة سيكنسهم وعى هذا الشعب ويلقى بهم فى مزبلة التاريخ !!

ويبقى الشعب بعد ذلك قادراً على أن يسترد حقه فى المتاع العقلى والروحى ، ويظفر بما ينبغى له من ثقافة .

ليست الثقافة حلية زائدة عن الحاجة ، ولكنها بالقياس إلى هذا الشعب قضية حياة .. قضية مصير .

فهـــرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٢٠١ / ١٩٩٧

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 235 - 925 -1)

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

في هذا الكتاب الذي يمثل مجموعة مقالات « خواطر حرة » التي نشرها الكاتب في جريدة الأهرام في الفترة من ١٩٨٣ وحتى ١٩٨٧ سيعيش القارىء مع فكر رجل رسالته هي الدفاع عن الحق والخير والحرية والتغني بأحلام البسطاء الشرفاء في روعة فجر جديد يسوده الإخاء والعدالة والمساواة والتحرر من قهر قوى الشر والظلام وسطوة صناع المآسي والأكاذيب .

وهو يرى إن الكلمة لها قدسيتها المسئولة عن صياغة أفضل للوجدان الإنساني وإن على الكاتب أن يضطلع بدوره القيادي في تحرير أفكار شعبه .

